واقع الجزيرة العربية قبل توحيدها
على يد الملك عبد العزيز – طيب الله ثراه –

بحث مقدم لمؤتمر الجماعة والإمامة – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

إعداد

أ.د. وصي الله بن محمد عباس

المدرس بالمسجد الحرام وجامعة أم القرى

ذو القعدة ١٤٣٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فأشكر الله -عز وجل- ثم أشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية أنها وجهت إليّ الدعوة للمشاركة في مؤتمر «الجماعة والإمامة». فاخترت من محاور المؤتمر الثمانيةِ المحورَ السابع: «واقع الجزيرة العربية قبل توحيدها على يد الملك عبد العزيز».

وهذا موضوع واسع جدًّا، فالجزيرة العربية قبل الملك عبد العزيز كانت مقسومة أجزاءً، قد تمزقت هذه الأجزاء أشلاءً وتمزعت، وكانت جبالها وكهوفها وأوديتها تشتكي إلى الله من النهب والسلب، ورمالها ترتوي بدماء المظلومين المقتولين بغير حق، إلا ما رحم ربنا. وكانت البدع والشركيات منتشرة في الجزيرة عامة بعد ما ضعفت دولة آل سعود الأولى والثانية في بعض مناطق بلاد نجد، إلا بقايا من مناطقها.

أما الحجاز فحدِّث عنه ولا حرج. كان الدين فيه مختلطًا بعقائد باطلة، وكان التقليد الجامد المتعصب قد غيَّر عقيدة العلماء الذين يقودون العامة، فضلاً عن العامة، من العقيدة السلفية الناصعة الواضحة إلى عقائد فلسفية أشعرية وماتريدية. وقد دخل باسم السلوك فيهم بدع التصوف بدلاً من الزهد الشرعي، وحتى التشيع، بل الرفض في بعض مناطق الجزيرة قد تأصلت جذوره وكانت تنتشر شروره، والله المستعان.

وبلد الله مكة، البلد الأمين، كانت تشتكي من ظلم بعض الأمراء وأعوانهم والعاملين في خدمة الحجاج، وعدم قدرة الدولة القائمة آنذاك على إقامة الأمن، ولم يبق الحرم الآمن آمِنًا كما ينبغي.

فقام عبقري هذا الدهر، وأعقل عقلاء هذا العصر، ومجدد دين الله على رأس القرن الماضي، ملك العلماء وعالم الملوك، عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، المؤيَّد من الله، الذي أكبره وأجلَّه عقلاء العالَم من المسلمين وغيرهم، وأثنوا عليه بصلابته في عقيدته، وحكمته وحنكته في إدارة الأمور، قام بعون الله بإصلاح ما فسد في كل الجوانب ولم يدخر وسعه وفكره، فقدّر الله على يديه استتباب الأمن أولاً في كهوف الجزيرة ومغاراتها ومُدَّخَلاتها، وتم الإصلاح في كل إدارة ودائرة، وخاصةً التعليم، وأسباب الأمن التي هي أهم مقومات الأمم.

والحديث عن أعمال هذا الإمام الجليلة ومنجزاته موضع فخر للأمة الإسلامية، بل في حديثه أسوة وعبرة لحكام المسلمين في كل بلد، لإقامة دين الله بكل شجاعة وعزم وحزم وتوكُّل صادق على الله الكريم، الذين يجبُنون عن إقامة شرع الله في بلادهم.

هذا وقد أُلِّفت وكُتِبت كتُب كثيرة في سيرة هذا الملك الراشد مالم يؤلَّف لأحد من الخلفاء والعظماء في التاريخ حسب علمي مَبْنيّة على الحقائق. والمؤلفات في سيرة أي شخص ينبغي أن تكون

مبنيّةً على الحقائق لا من نسج الخيال؛ لأنه كما قيل: التاريخ أرقام ووقائع، إذا دخلها الخيال فسدت.

وبناء على الخطاب الذي وجّهه إلي فضيلة رئيس اللجنة العلمية للاشتراك في مؤتمر «الإمامة والجماعة» المُزمَع عقده في ساحة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في شهر ذي القعدة لعام ١٤٣٣هـ - ولم يصلني الخطاب إلا بعد أن لم يبق إلى آخر موعد لتسليم البحث لأمانة المؤتمر إلا عشرة أيام فقط - ففي ظرف عشرة أيام جمعت هذا البحث إسهامًا مني لإبراز فضائل هذا الإمام الجليل ومناقبه، وأداءً لحق الحُبِّ الذي ترعرعت عليه لهذا الإمام منذ نعومة أظفاري، فأنا من أبناء أهل الحديث السلفيين في الهند، الذين يكنّون للملك عبد العزيز ولآل سعود وآل الشيخ كلهم كل الإجلال والإكبار، الذين أحيَوْا الدين الخالص والتوحيد المجرد والمنهج السلفي في هذا العصر، بعد ما ظَلَمت قرونٌ طويلةٌ هذا المنهجَ وكادت أن تتفق على ظلمها عامة البلاد التي كانت فيها دويلات إسلامية، وصارت الدعوة إلى الكتاب والسنة عقيدةً وعملاً خاصة في هذه الأيام عبارة عن وهابية ضالة عند بعض الطوائف، بل كافرة عند البعض.

والتاريخ الإسلامي يشهد أن علماء أهل الحديث وعوامهم في الهند قد أيّدوا الملك عبد العزيز - رحمه الله- ودافعوا عنه ودعوا الله له بالتوفيق والنصر في جهوده، في حين أن بعض طوائف المسلمين في الهند أقاموا مؤتمرات قرروا فيها منع الناس من الحج ما دامت أمور الحجاز في يد الوهابيين وعلى رأسهم الملك عبد العزيز آل سعود.

ومن جملة هذه المؤتمرات مؤتمر في لَكْنَو قرّروا فيه قرارات جائرة خلاف الملك -رحمه الله-، وكان أخطر وأسوأ ما تجرأوا عليه في هذا المؤتمر أن أرسلوا إلى الحكومة البريطانية (التي كانت مستعمرةً الهندَ آنذاك) برقية طلبوا فيها التدخّل في شؤون الحجاز نيابة عن مسلمي الهند.[1] وكان من أبرز زعماء المسلمين محمد علي وشوكت علي وغيرهم يتجولون في أنحاء الهند غير المنقسمة يوصون الناس بعدم الذهاب للحج في هذا العام.

وبعكسه قام الشيخ ثناء الله أمير جماعة أهل الحديث وغيره من علماء أهل الحديث وحثوا الناس على الحج وأن حج هذا العام يكون إن شاء الله على السنّة بعد قرون طويلة. وعقد أهل الحديث عدة مؤتمرات للرد على افتراءات المفترين وفي تأييد الملك عبد العزيز آل سعود المبارك -رحمه الله-.

والحق أن الملك عبد العزيز -رحمه الله- قد قام بعمل توحيد الحجاز ونجد بعد قرون طويلة، بعد ما اكتوت بنار الفرقة والقبلية وفقدان الأمن إلى آخر حد، كما أن الله -عز وجل- بصلاح هذا الإمام قد فتح خزائن الأرض، فأول مرة في تاريخ الجزيرة بعد قرون كثيرة ينتشر فيها الأمن والرخاء.

وإن قيام الملك بتوحيد الجزيرة وإقامة الأمن فيها أمر لم يكن بسهل، بل لو عبرنا بأنه كرامة أجراها الله على يد الملك عبد العزيز لما بعدنا عن الحقيقة. إن هذا الأمر ينظر إليه المرء بعين مِلؤها الإعجاب والإجلال لما وهب الله الوهاب القدير الملك عبد العزيز من العظمة والعبقرية، فقد استطاع بتوفيقه

ونصره أن يبدّل الحياة الاجتماعية والمفاهيم الجاهلية التي كان يعيشها بدو الجزيرة، ما كان منها سيّئًا إلى حسن، وما كان حسنًا إلى أحسن.

ثم الجانب الأعظم الذي يمكننا أن نبرزه بإكبار وإجلال هو أن هذا الملك المبارك، الملك السلفي، قد غيّر جميع ما كانت عليه الجزيرة من المخالفات الشرعية، وهو الذي أسس دولته على الكتاب والسنة، ونشر علومهما، وأعاد في أذهان الناس ذكرى الخلافة الراشدة، وخدم الكتاب والسنة هو وأولاده خدمة لم يوجد لها نظير بعد القرون الفاضلة، وكل من عرف حقيقة أمر جهود هذا الإمام يدعو له ولأنجاله إجلالاً وإكبارًا، بكل إخلاص.

والشكر لله ثم لرئيس اللجنة العلمية للمؤتر الدكتور إبراهيم بن محمد قاسم الميمن على توجيه الدعوة التي نتج عنها هذا البحث المتواضع.

وهذا البحث يشتمل على هذه المقدمة وسبعة فصول وخاتمة، وأما الفصول فهي:

الفصل الأول: تعريف الجماعة والإمامة ومكانتهما باختصار لربط البحث مع موضوع المؤتمر

الفصل الثاني: حالة الأمة الإسلامية قبل الملك عبد العزيز

الفصل الثالث: عرض موجز لتاريخ دولة آل سعود

الفصل الرابع: واقع الأمن في شبه الجزيرة العربية قبل الملك عبد العزيز

الفصل الخامس: الحالة الدينية في شبه الجزيرة العربية قبل الملك عبد العزيز

الفصل السادس: الحالة المعيشية في شبه الجزيرة العربية قبل الملك عبد العزيز

الفصل السابع: واقع العلم والتعليم وأمور أخرى في شبه الجزيرة العربية قبل الملك عبد العزيز

وأذكر في كل فصل منها ما يتعلق بعنوانه من واقع الجزيرة، وأشير فيها إلى بعض منجزات الملك عبد العزيز -رحمه الله- أيضًا؛ لأن الموازنة بين الأمور تظهر التميز والتفضيل، وتبعث على الحمد والشكر لله -عز وجل-.

وصي الله بن محمد عباس

الفصل الأول: تعريف الجماعة والإمامة ومكانتهما باختصار

تعريف الجماعة لغة:

قال ابن منظور: «جمع الشيء عن تفرقة يجمعه جمعًا...والجماعة عدد كل شيء وكثرته»، وقال: «والجمع: اسم لجماعة الناس...والجمع: المجتمعون، وجمعه جموع. والجماعة والجميع والمجمع والمجمعة كالجمع، وقد استعملوا ذلك في غير الناس حتى قالوا جماعة الشجر وجماعة النبات».[٢]

وهذا المعنى للجماعة هو المطلوب شرعًا، حيث يجتمع عدد كثير على أمر ولا يتفرّقون. فقد عرّفوا الجماعة فقالوا: هم الصحابة على الخصوص، فإنهم الذين أقاموا عماد الدين وأرسوا أوتاده، وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة أصلاً، وقد يمكن فيمن سوى ذلك.[٣]

تعريف الجماعة شرعًا:

وتطلق الجماعة شرعًا على الطائفة العاملة بالكتاب والسنة والقياس عليهما، وخاصةً العلماء وأئمة الهدى. قال الشافعي: «الجماعة لا تكون فيها غفلة عن معنى كتاب الله ولا سنة ولا قياس، وإنما تكون الغفلة في الفرقة».[٤] قلت: ودليله قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ: ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ**».[٥]

وقد ذكر الشاطبي في معنى الجماعة خمسة أقوال، **أحدها**: أنها السواد الأعظم، واستدل لهذا القول بقول أبي مسعود الأنصاري وابن مسعود رضي الله عنه: أنه لما قتل عثمان رضي الله عنه سئل عن الفتنة فقال: «عليك بالجماعة، فإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم على ضلالة. واصبر حتى تستريح أو يستراح من فاجر». وقال: «إياك والفرقةَ، فإن الفرقة هي الضلالة». وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «عليكم بالسمع والطاعة فإنها حبل الله الذي أُمِر به» ثم قبض يده «إن الذي تكرهون في الجماعة خير من الذي تحبون في الفرقة».

الثاني: أنها جماعة أئمة العلماء والمجتهدين المقتدى بهم، وممن قال بهذا عبد الله بن المبارك، وابن راهويه، وجماعة من السلف. قيل لعبد الله بن المبارك: مَن الجماعة الذين ينبغي أن يقتدى بهم؟ قال: أبو بكر وعمر، فلم يزل يحسب حتى انتهى إلى محمد بن ثابت والحسين بن واقد، فقيل: هؤلاء ماتوا، فمِن الأحياء؟ قال: حمزة السكري.

الثالث: جماعة الصحابة على الخصوص، (أقول: لا شك أنهم أصل الجماعة الذين اجتمعوا على العمل بالكتاب والسنة ملتفين حول إمام المسلمين محمد صلى الله عليه وسلم، فإن لم يكونوا هم الجماعة الأولى فمن يكون؟)

الرابع: هي جماعة أهل الإسلام إذا أجمعوا على أمر واجب، وكما مضى عن الشافعي: «الجماعة لا تكون فيها غفلة عن معنى كتاب الله ولا سنة ولا قياس، إنما تكون الغفلة في الفرقة». (قلت: هذا يدخل في المعنى الثالث فيما يظهر).

الخامس: ما اختاره الطبري: الجماعة هي جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، وكان المفارق لها ميّتًا ميتة الجاهلية، فهي الجماعة التي وصفها أبو مسعود الأنصاري، وهي معظم الناس وكافتهم من أهل العلم والدين وغيرهم، وهو السواد الأعظم. قال: وقد بيّن ذلك عمرُ بن الخطاب حين طُعِنَ لصهيبٍ: «صلِّ بالناس ثلاثًا، وليدخل علَيّ عثمان وعلِي وطلحة والزبير وسعيد وعبد الرحمن، وليدخل ابن عمر في جانب البيت وليس له من الأمر شيء، فقم يا صهيب على رؤوسهم بالسيف، فإن بايع خمسة ونكص واحد؛ فاجلد رأسه بالسيف، وإن بايع أربعة ونكص رجلان؛ فاجلد رؤوسهما حتى يستوثقوا على رجل». فالجماعة التي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلزومها، وسمى المنفرد عنها مفارقًا لها نظير الجماعة التي أوجب الخلافة لمن اجتمعت عليه، وأمر صهيبًا بضرب رأس المنفرد عنهم بالسيف فهم في معنى كثرة العدد المجتمع على بيعته وقلة عدد المنفرد.[٦]

وهناك أقوال أخرى قريبة من الأقوال الخمسة المذكورة. فالذي يظهر أن المقصود في معنى الجماعة في باب السياسة هم أهل الحل والعقد من المتبعين للكتاب والسنة، الذين بهم تنعقد الإمامة والبيعة لها. وأما في باب العقيدة والشريعة، فهم المتبعون للكتاب والسنة عامةً، علماء وعوام، والله أعلم.

والدليل على هذين المعنيين جميعًا قوله صلى الله عليه وسلم: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً. قِيلَ: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي** – وفي بعض الروايات–: **هِيَ الْجَمَاعَةُ**».[٧]

والجماعة تطلق على من يكون على الحق، ويدل عليه ما جاء من قول ابن مسعود: «إنما الجماعة ما وافق طاعة الله وإن كنت وحدك».[٨] ويدل عليه أيضًا قول النبي صلى الله عليه وسلم «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**».[٩] فالطائفة عبارة عن ناس ليسوا بكثيرين ولا هم الأكثرون.

تعريف الإمامة لغة:

قال الراغب: «والإمام: المؤتمّ به، إنسانًا – كأن يقتدى بقوله أو فعله – أو كتابًا أو غير ذلك، محقًّا كان أو مبطلاً، وجمعه: أئمة...والأَمُّ: القصد المستقيم، وهو التوجه نحو مقصود، وعلى ذلك: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾[١٠]».[١١]

وقال ابن منظور: «وأمَّ القومَ وأم بهم: تقدمهم، وهي الإمامة. والإمام: كل من ائتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين. ابن الأعرابي في قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾[١٢]، قالت طائفة: بكتابهم، وقال آخرون: بنبيهم وشرعهم، وقيل: بكتابه الذي أحصي فيه عمله. وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام أمّته، وعليهم جميعًا الائتمام بسنته التي مضى عليها. ورئيس القوم: أَمّهم. ابن سيده: والإمام ما ائتم به من رئيس وغيره، والجمع أئمة. وفي التنزيل العزيز: ﴿فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾[١٣] أي: قاتلوا رؤساء الكفر وقادتهم الذين ضعفاؤهم تبع لهم».[١٤] ونحوه أقوال اللغويين الآخرين.

الإمامة في باب السياسة الشرعية:

هي كما عرّفها الماوردي فقال: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»، وقريب منه تعريف الجويني والآمدي وابن خلدون.[١٥] وخلافة النبوة تعني إقامة حكم الله عامة، فهذا من خصائص الإمام العام.

ونصب الإمامة والخلافة واجب. قال الماوردي: «وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع، وإن شذ عنهم الأصم».[١٦] وحكم بالوجوب ابن تيمية وقد نقل العلماء الإجماع على نصب الخليفة، فقال العراقي في «طرح التثريب»: «وقد قال عليه الصلاة والسلام: الأئمة من قريش، فكان معناه الأمر بعقد البيعة لإمام من قريش ولذلك رأيت الصحابة يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقضوا شيئًا من أمر دفنه وتجهيزه حتى أحكموا أمر البيعة ونصبوا أبا بكر وكانوا يسمونه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان فعلهم صادرًا عنه ومضافًا إليه. وذلك من أدل الدليل على وجوب الخلافة وأنه لا بد للناس من إمام يقوم بأمرهم ويمضي فيهم أحكام الله تعالى، ويردعهم عن الشر ويمنعهم من التظالم والتفاسد، ويدل على ذلك أيضًا قضية مُؤتة[١٧] ونصبه عليه الصلاة والسلام أميرًا بعد أمير، وهذا اتفاق الأمة لم يخالف فيه إلا الخوارج والمارقة الذين شقوا العصا وخلعوا ربقة الطاعة». انتهى.[١٨]

وقد استعمل العلماء للخليفة لفظ الإمام، والخليفة، وأمير المؤمنين، وولي الأمر، وسلطان المسلمين.

انعقاد الإمامة:

قال الماوردي: «والإمامة تنعقد من وجهين أحدهما: باختيار أهل العقد والحل، والثاني بعهد من الإمام من قبل». فقد حصر الماوردي طريق انعقاد الإمامة في أمرين فقط، ولكن الذي يظهر بالنصوص وواقع تعامل الأمة أن لها طريقًا ثالثًا وهو التغلّب، ويستدل له من قوله -صلى الله عليه وسلم- فيما رواه الترمذي عن العرباض بن سارية: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلاَلَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**».[١٩]

وفي لفظ للترمذي عن أم الحصين الأحمسية في حجة الوداع: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ، وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ فَاسْمَعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا مَا أَقَامَ لَكُمْ كِتَابَ اللَّهِ**».[٢٠]

قال علي القاري: «(فقال: أوصيكم بتقوى الله)، أي: بمخافته والحذر من معصيته...(والسمع)، أي: وبسمع كلام الخليفة والأئمة (والطاعة): لمن يلي أمركم من الأمراء ما لم يأمروا بمعصية عادلاً كان أو جائرًا، وإلا فلا سمع ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لكن لا يجوز محاربته (وإن كان)، أي: المطاع يعني من ولاه الإمام عليكم (عبدًا حبشيًّا): فأطيعوه ولا تنظروا إلى نسبه بل اتبعوه على حسبه، ولفظ الأربعين: (وإن تأمر عليكم عبد)، أي: صار أميرًا أدنى الخلق فلا تستنكفوا عن طاعته، أو ولو استولى عليكم عبد حبشي فأطيعوه مخافة إثارة الفتن، فعليكم الصبر والمداراة حتى يأتي أمر الله، وقيل: هذا وارد على سبيل الحث والمبالغة على طاعة الحكام لا التحقيق، كما قال عليه الصلاة والسلام: (من بنى لله مسجدًا ولو مثل مفحص قطاة بنى الله له بيتًا في الجنة)، وقيل: ذكر على سبيل المثل إذ لا تصح خلافته لقوله عليه الصلاة والسلام: (الأئمة من قريش).

قلت: لكن تصح إمارته مطلقًا، وكذا خلافته تسلطًا كما هو في زماننا في جميع البلدان، وكأن ذكر الحبشي لكونه الغالب في ذلك الزمن وإلا فغيره كالزنجي أخس منه [هكذا] فكان أنسب بالغاية، أو المراد بالحبشي العبد الأسود فيشمل الزنجي والهندي ثم التركي يعلم بالأولى». اهـ.[٢١]

وإذا نظرنا إلى حال الملك عبد العزيز فهو بحق إمام المسلمين، حيث اجتمعت حوله جماعة المسلمين في الجزيرة وأطاعته و لم يوجد فيهم خلاف، وهو بدوره أقام فيهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إقامة لم يُر مثلها منذ قرون. فوجب على الأمة طاعته وطاعة من تولى بعده بعهد من الأول للآخر.

الفصل الثاني: حالة الأمة الإسلامية قبل الملك عبد العزيز

انتشرت الدولة الإسلامية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم في الجزيرة بكاملها، وفي عهد الخلافة الراشدة توسعت أكثر حتى بلغت في خلافة عثمان رضي الله عنه إلى خراسان وما وراء النهر، وفي زمن معاوية رضي الله عنه وصلت الجيوش الإسلامية إلى قبرص وكانت تُبحِر سفنهم في المحيطات. وكان الناس في خير القرون كلما رفعت فتنةٌ عقدية أو شرعية رأسَها تصدّى لها أهل العلم، وكان خيرُ القرون خيرَ القرون حقًّا، فقد كان الخير فيها غالبًا والشر فيها قليلاً أو كاد أن ينعدم.

كان الناس حول إمام واحد وعقيدة واحدة، فمن خالف ذلك المنهج نبذ من الجماعة ونبذت عقيدته. ولكن كما قال الشيخ محمد محمد أبو زهو: «منيت الدولة الإسلامية من مبدأ القرن الرابع الهجري بتدهور سياسي قطع أوصالها، وجعلها دويلات متناثرة وأشلاء ممزقة، فدولة بني أمية بالأندلس، وعلى رأسها عبد الرحمن الناصر ملقِّبًا نفسه بأمير المؤمنين سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م، وذلك لما أن أحس

بضعف الدولة العباسية، والفاطميون يستقلون بشمال أفريقية، والدولة الإخشيدية بمصر، وإن كانت تدعو لبني العباس إلا أنها مستقلة عنهم في حقيقة الأمر، ودولة بني حمدان تسيطر على الموصل وحلب الشام وإن تظاهرت بالدعوة لبني العباس، والشيعة الزيدية باليمن أقاموا لهم دولة، والدولة السامانية العظيمة تسيطر على المشرق وبلاد ما وراء النهر، ودولة بني بويه تسيطر على بغداد ولا تبقي لبني العباس سوى مجرد الاسم. ولم تكن الحياة السياسية حياة استقرار، بل كانت مضطربة مائجة، فالفاطميون يغيرون على مصر ويستقلون بها سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م، وآل سلجوق يطغى سيلهم على معظم البلاد الإسلامية، فينتزعون الملك من بني بويه ويستولون على الجزيرة وآسيا الوسطى، وينازعون الفاطميين ملك الشام، وتصبح لهم الكلمة النافذة في جميع الأقاليم الإسلامية ما عدا مصر وبلاد المغرب.

ثم لما دب الخلاف بين آل سلجوق، هبت ريح الصليبيين، فقاموا في أواخر القرن الخامس واستولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م، وكانت لهم حروب طويلة مع المسلمين. وعلى أنقاض الدولة السلجوقية، قامت دولة الأتابكية وانتشرت شرقًا وغربًا، حتى سقطت الدولة الفاطمية بمصر على يد محمود نور الدين، وعادت مصر ولاية عباسية، وأقام بها صلاح الدين الأيوبي – أحد قواد محمود نور الدين – دولة عظيمة.

أما في بلاد المشرق خراسان وما إليها، فقد أقام خوارزم شاه محمد بن تكش دولة قوية قضت على الملوك وضمت الممالك، وفي أواخر القرن السادس، عزم خوارزم شاه على التوجه إلى الخليفة ليقضي عليه، فلم يتيسر له ذلك، وباغته التتار النازحون من أطراف الصين والبراري –وهم قوم اشتهروا بالشر والغدر– وعلى رأسهم جنكيز خان قائدهم الأعلى، ولم يلبثوا أن أغاروا على البلاد الإسلامية في سرعة هائلة، يسفكون الدماء ويقتلون الأبرياء، حتى وصلوا إلى بغداد وقتلوا الخليفة وأسقطوا الخلافة العباسية، وذلك سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م.

هذا ومما هو جدير بالذكر أن هذه الأحداث التاريخية الهائلة والتقهقر السياسي الخطير لم يصحبه تقهقر علمي، بل ما زالت الحركة العلمية قائمة؛ فالعلماء يرحلون من قطر إلى آخر، ويتلقى بعضهم عن بعض، ويعرضون الكتب والمسموعات على الشيوخ. وكان لهم نشاط علمي في نقد الرجال وتمحيص الأحاديث، ومصنفات جياد في علل الحديث وتاريخ الرواة وعلوم الحديث عامة، غير أنهم لم يبلغوا شأو المتقدمين، بل كثيرًا ما كانوا يتكلمون بلسان أهل القرون السابقة». انتهى.[٢٢]

ولقد كان زوال الخلافة العباسية على أيدي التتار في سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م بمؤامرة وزير الخليفة العباسي ابن العلقمي الرافضي، فقتل هولاكو الخليفةَ المستعصم بالله وقتل علماء وفضلاء كثيرين، ثم كل من نصب بعدُ من الخلفاء لم يكن له إلا الاسم والنفوذ والأمر كان للحاشية.[٢٣]

وقامت في الهند دولة المغول وبقوا فيها ثمانية قرون، ولكن المغول لم يعملوا في الهند للإسلام عُشْر معشار ما عملوا في بناء القصور وأسباب الرفاهية، أنفقوا فيها أموالاً طائلةً لو بُذِل عُشْرها في الدعوة إلى الله لكان للإسلام هناك شأنًا ولدخل في دين الله الهندوس بعدد هائل ولكن الشكوى إلى الله.

انهزم المسلمون سياسيًّا في الأندلس وبلاد الغرب التي كان فيها شأن كبير للإسلام في الماضي، ولو لم تبق المباني والمساجد القائمة إلى الآن هناك لما وجد الإنسان فيها أثرًا للإسلام والمسلمين، إلا أن بقية بلاد المسلمين كانت في أيديهم.

والعداء والصراع بين الكفر والإيمان أمر واقع، يشهد له تاريخ الأنبياء وأحوالهم، والقرآن خير شاهد عليه، وحياة النبي صلى الله عليه وسلم ماثلة أمام أعين المسلمين كيف ألجأه الكفار إلى المعارك حتى جاء نصر الله. كذلك في جميع هذه القرون كان العداء للإسلام يعمل عمله، وكان المسلمون غالبين لا مغلوبين سياسيًّا إلا ما كان في الأندلس.

وبداعي عداء الإسلام، قام الإنجليز والأوربيون بالحروب الصليبية، فكانت الحرب بينهم سجالاً حتى حصل الانقلاب الصناعي والتفوق الحربي في أوربّا، فضعفت أمامها الدول الإسلامية، فطمع فيها الكفار، وأخذوا يتسلطون عليها، واحتلّوا دول الإسلام: المغرب، والجزائر، وتونس، وليبيا، ومصر، والهند، وغيرها. وكان قصدهم بالاحتلال نهب ثروات البلاد ثم محاربة الإسلام، وأزيلت الخلافة العثمانية التي كانوا يعدّونها رمزًا كبيرًا للإسلام. وهذه الفترات كانت أشد أيام المحن والضعف التي مرَّ بها الإسلامُ والمسلمون.

ثم من حيث العقائد، دخلت في دين الله شوائب غَيَّرت وجه الدين الإسلامي، ترك كثير من المسلمين العمل بالكتاب والسنة، ولم يبق القرآن والحديث إلا للتبرك بهما وبقراءتهما، وكان العمل على العقائد المخالفة لعقيدة السلف، وكانت المذاهب المختلفة في تناحر وشقاق من أسوأ أنواع الشقاق بين المسلمين. وكان المسلمون حيارى، ليست لهم إمامة ولا خلافة حقيقية التي يمكن أن تسمى إمامة أو خلافة، وليست لهم جماعة، بل جماعات وفِرَق.

وباستحكام قبضة الأوربيين الكفار على عامة بلاد الإسلام أصبح الناس في يأس من إصلاح المسلمين. وقد قام في بعض البلاد بعض المصلحين وأدّوا ما كان واجبًا عليهم من الجهاد ضد الأعداء، وذهبوا إلى ربهم. لكن بعدما تحررت البلاد المغتصبة في الظاهر من أيدي الأعداء وولّى الأعداء المستعمرون من البلاد تركوا وراءهم جراثيمهم يحكمون البلاد على غير شرع الله.

وفي هذه القرون المتأخرة كانت بعض أطراف الجزيرة المتاخمة لموانئ البحر مستعمرات من قِبَل الأعداء. وأما داخل بلاد نجد والحجاز فلم يقدر المستعمرون الوصول إليها أو لم يريدوها؛ لأن غرضهم من استعمار البلادِ الثروةُ وإخراج المسلمين من خالص دينهم، ولم تكن ثروات في صحاري الجزيرة ووديانها. وأما المسلمون فقد ضلوا الطريق المستقيم، فالبدو الفقراء التجأوا إلى النهب والسلب، وقلّ

فيهم العلم الشرعي بل كاد أن ينعدم، وتوارثوا الجهل، و لم تكن لهم إمامة تجمع رؤوسهم وتقيم فيهم أمر الله. وكذلك كان الأمر في الحجاز أيضًا، فلم توجد إمامة بالمعنى الصحيح، وكان الناس فوضى.

ففي هذا الجو إذا رجع الإنسان ببصره لم يجد في العالَم كله دولةً تقيم في الناس حكم الله والدين الخالص والعقيدة الصحيحة. نعم، كان لآل سعود في نجد في بعض الأيام نفوذ، أقاموا فيها التوحيد الخالص والأحكام الشرعية، ولكن دولة آل سعود كانت تبرز حينًا وتختفي في حين آخَر. و لم يستقر الأمر لهم آنذاك، حتى أتى الله بالملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، فأكرمه الله حتى ملك الجزيرة بكاملها وقام بأعمالٍ جليلةٍ تجعله بِحَقٍّ مستحقًّا أن يسمى إمامًا، والأمة التي حكم عليها جماعةً. فكان الملك عبد العزيز -بعد فضل الله- موضع أمل المسلمين الذين يتبعون الكتاب السنة، فجدد دين الله الذي اندرست أكثر معالمه، وأقام الأمن المثالي وأزال الخوف الذي كان يشتكي منه العالم الإسلامي كله.

الفصل الثالث: عرض موجز لتاريخ دولة آل سعود

فأول من تولى الحكم في نجد سعود بن محمد بن مُقْرِن في إمارة الدرعية سنة ١١٣٢هـ/١٧٢٠م، وهو الذي تنسب إليه أسرة آل سعود، وتوفي رحمه الله سنة ١١٣٧هـ/١٧٢٥م، وترك من الأولاد محمدًا ومشاري وثُنَيّان ومُرْخان. وتولى إمارة الدرعية بعده زيد بن مرخان، الذي قُتِل في أواخر سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٧م. و لم يكن لزيد بن مرخان من يصلح ليخلفه من نسله، فعادت إمارة الدرعية إلى أبناء سعود، فتولاها محمد بن سعود بن محمد بن مقرن.

وفي أيامه ظهرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العُيَيْنة، وهو من أهلها، وكان أميرها آنذاك عثمان بن حمد بن معمر، وقد قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى التوحيد وإنكار البدع والشركيات التي كان الناس قد غَرِقوا فيها.

ولكن كما ذكر العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز أن «بلغ أمير الأحساء وتوابعها من بني خالد سليمان بن عريعر الخالدي أمر الشيخ، وأنه يدعو إلى الله، وأنه يهدم القباب، وأنه يقيم الحدود، فعظم على هذا البدوي أمر الشيخ، لأن من عادة البادية - إلا من هدى الله- الإقدام على الظلم، وسفك الدماء، ونهب الأموال، وانتهاك الحرمات، فخاف أن هذا الشيخ يعظم أمره، ويزيل سلطان الأمير فكتب إلى عثمان يتوعده، ويأمره أن يقتل هذا المطوع الذي عنده في العيينة، وقال: إن المطوع الذي عندكم بلغنا عنه كذا، وكذا!! فإما أن تقتله، وإما أن نقطع عنك خراجك الذي عندنا.!! وكان عنده للأمير عثمان خراج من الذهب، فعظم على عثمان أمر هذا الأمير، وخاف إن عصاه أن يقطع عنه خراجه أو يحاربه، فقال عثمان للشيخ إن هذا الأمير كتب إلينا كذا وكذا، وإنه لا يحسن منا أن نقتلك، وإنا نخاف هذا الأمير ولا نستطيع محاربته، فإذا رأيت أن تخرج عنا فعلت، فقال الشيخ: إن الذي أدعو

إليه هو دين الله، وتحقيق كلمة لا إله إلا الله وتحقيق شهادة أن محمدا رسول الله، فمن تمسك بهذا الدين، ونصره وصدق في ذلك نصره الله وأيده وولاه على بلاد أعدائه، فإن صبرت واستقمت، وقبلت هذا الخير فأبشر، فسينصرك الله ويحميك من هذا البدوي وغيره، وسوف يوليك الله بلاده وعشيرته. فقال: أيها الشيخ إنا لا نستطيع محاربته، ولا صبر لنا على مخالفته. فخرج الشيخ عند ذلك وتحول من العيينة إلى بلاد الدرعية سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م، جاء إليها ماشيا فيما ذكروا، حتى وصل إليها في آخر النهار، وقد خرج من العيينة في أول النهار مشيا على الأقدام، لم يرحله عثمان، فدخل على شخص من خيارها في أعلا البلد يقال له محمد بن سويلم العريني، فنزل عليه ويقال إن هذا الرجل خاف من نزوله عليه، وضاقت به الأرض بما رحبت، وخاف من أمير الدرعية محمد بن سعود فطمأنه الشيخ وقال له: أبشر بخير وهذا الذي أدعو الناس إليه دين الله، وسوف يظهره الله. فبلغ محمد بن سعود خبر الشيخ محمد.

ويقال إن الذي أخبره زوجته، جاء إليها بعض الصالحين، وقال لها: أخبري محمدا بهذا الرجل، وشجعيه على قبول دعوته، وحرضيه على مؤازرته ومساعدته، وكانت امرأة صالحة طيبة، فلما دخل عليها محمد بن سعود أمير الدرعية وملحقاتها، قالت له: أبشر بهذه الغنيمة العظيمة! هذه غنيمة ساقها الله إليك، رجل داعية يدعو إلى دين الله، يدعو إلى كتاب الله، يدعو إلى سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام يا لها من غنيمة! بادر بقبوله وبادر بنصرته، ولا تقف في ذلك أبدا فقبل الأمير مشورتها، ثم تردد هل يذهب إليه أم يدعوه إليه؟! فأشير عليه، ويقال إن المرأة أيضا هي التي أشارت عليه مع جماعة من الصالحين، وقالوا له: لا ينبغي أن تدعوه إليك، بل ينبغي أن تقصده في منزله وأن تقصده أنت، وأن تعظم العلم والداعي فذهب إلى الشيخ في بيت محمد بن سويلم وقصده وسلم عليه وتحدث معه، وقال له يا شيخ محمد: أبشر بالنصرة وأبشر بالأمن وأبشر بالمساعدة، فقال له الشيخ: وأنت أبشر بالنصرة أيضا والتمكين والعاقبة الحميدة».[٢٤]

وفي عهد محمد بن سعود، ابتدأ دور الإمامة، فكان يُدعَى بالإمام، وكان رؤساؤهم من قبل يُدعَون بالشيوخ والأمراء. وظل محمد بن سعود كذلك أكثر من عشرين عامًا من إمارته، وإنما دعي بالإمامة بعد معاهدة الإمام محمد بن عبد الوهاب، لما اصطبغت سياسته وحروبه بالصبغة الدينية الخالصة وتوسعت إمارته. وتوفي الإمام محمد بن سعود سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٥م عن نحو سبعين عامًا، ودام حكمه أربعين عامًا. وكانت إمارة الدرعية قد عم سلطانها في عهد الإمام محمد كثيرًا من بلدان نجد وبواديها.

وتولى الإمارة بعده ولي عهده ابنه الإمام عبد العزيز سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٥م، فتابع فتوحاته.[٢٥] قال الشوكاني: «فافتتح جميع الديار النجدية والبلاد العارضية والحسا والقطيف وجاوزها إلى فتح كثير من البلاد الحجازية، ثم استولى على الطائف ومكة والمدينة وغالب جزيرة العرب».[٢٦]

ويذكر الآخرون أنه لم يتم دخول مكة إلا لابنه سعود. وكل هذه البلاد قد حظيت بتعاليم الإسلام ومحو البدع والشرك المنتشرين في كثير من البلدان نتيجة التوافق بين الآلَيْنِ: آل سعود وآل الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وكانت عشائر العراق في زمن الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود تُمِدّ القبائل النجدية التي كانت تناوئ دولة آل سعود، وكانت العشائر وراء كثير من الاضطرابات التي تنشب بين حين وآخر في الأحساء وفي بعض المدن النجدية. وأدرك الإمام عبد العزيز أنه لا بد من القيام ببعض الأعمال التأديبية خلافها، فأرسل جيوشًا عِدّة ولكن يكتب لها النجاح المطلوب في فتح العراق.

وفي سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م، بلغ الإمام عبد العزيز بن محمد السبعين من عمره، فألقى مهام الدولة على عاتق ابنه سعود بعد أخذ البيعة بولاية العهد له، وهو يمده بالرأي. وقد هاجم سعود في عهده كربلاء وهدم قبة الحسين سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م، وقتل نحو ألفين من رجالها في سبيل محو هذه البدعة، فتسلل إلى الدرعية شيعي يسمى درويش فقَتَل الإمام عبد العزيز بخنجر سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م انتقامًا لما فعل ابنُه سعود بكربلاء.(٢٧)

وفي الأسبوع الأول من هذه السنة، دخل الإمام سعود مكة، وكتب للسلطان سليم خان الثالث: «إني دخلت مكة في اليوم الرابع من محرم سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م وأمّنت أهلها مع أرواحهم وأموالهم بعدما هدمت ما هناك من أشياء وثنية، وألغيت الضرائب إلا ما كان حقًّا، وأثبت القاضي الذي وليته أنت طبقًا للشرع، عليك أن تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء بالمحمل والطبول والزمور إلى هذا البلد المقدس؛ فإن ذلك ليس من الدين في شيء، وعليك رحمة الله وبركاته. الواثق بالله المعبود سعود».

وكانت الدولة العثمانية قد ضاقت ذرعًا باتساع دولة آل سعود، فأرسلت جيوشًا من مصر والشام والعراق إلى المدينة وجدة والدرعية تحت ولاية محمد علي باشا والي مصر. وجهز سعود جيشًا بقيادة ابنه عبد الله لمواجهة الزحف التركي والمصري على ينبع والمدينة في سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م، فمزق حملة محمد علي وكان يقودها ابنه طوسون.

وتوفي الإمام سعود سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م، وبويع بعده لابنه الإمام عبد الله بن سعود وهو في ساحات القتال في طريقه إلى الحجاز وعسير. وقدّر الله أنه بعد أن خاض الإمام عبد الله بن سعود معارك عديدة يقودها إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، تغلب الأخير على الديار النجدية وقتل رجالها ودمّر الدرعية، وحُمِل الإمام عبد الله بصحبته ثلاثة أو أربعة من أقربائه إلى مصر فالأستانة — أي إسلامبول — فشُنِق هناك وقُتِل أقرباؤه في مدن مختلفة.

وبعد رحيل الجيش التركي والمصري، بويع للإمامة الإمام مشاري بن سعود الكبير، ثم تركي ابن عبد الله بن محمد بن سعود. وبعد تركي، بويع بالإمامة لفيصل بن تركي بالرياض سنة ١٢٥٠هـ، وكان لا يخلو الحال في هذه العهود من اضطراب. فأرسل والي مصر محمد علي سنة

١٢٥٢هـ/١٨٣٦م جيشًا لقتال فيصل، فنشبت معارك انتهت بالصلح بين فيصل وجيش محمد علي على أن يسافر فيصل إلى مصر ويقيم هناك. واستطاع فيصل أن ينفلت من معتقله في مصر سنة ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م، فوصل إلى الرياض وعليها عبد الله بن ثنيان، فحصره فيصل في قصر الرياض إلى أن ظفر به، وحبسه إلى أن مات فيه.

واستتبّ الأمر لفيصل بن تركي، وكُفّ بصره في آخر أيامه؛ فباشر أعمالَ الدولة ابنُه عبد الله مع أخيه محمد إلى أن توفي الإمام فيصل في الرياض سنة ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م. وخلف أربعة أولاد ذكور: عبد الله أكبرهم، وسعود، ومحمد، وعبد الرحمن والد الملك عبد العزيز، وكان أصغرهم. فتولى الإمامة بعده ابنُه عبد الله، ولكن حصل بينه وبين أخيه سعود خلاف لا يسر القارئ تفصيله، فقاتله سعود، فخرج عبد الله مع أهله وعاش في البادية. واستتب الأمر لسعود، وتوفي في ذي الحجة ١٢٩١هـ/١٨١٥م.

وبعد وفاة سعود، بايع أهل الرياض الإمام عبد الرحمن بن فيصل إمامًا وحاكمًا، فحكم منطقة الرياض نحو عامين، ثم وصل أخوه الأكبر إلى الرياض فنزل له عبد الرحمن عن الإمامة سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م، ثم بعد موت عبد الله بويع مرة أخرى لعبد الرحمن بن فيصل. وبرز آل رشيد فحصل بين الإمام عبد الرحمن وآل رشيد مصادمات وأحداث يطول ذكرها. وأخيرًا، اضطر الإمام عبد الرحمن أن ينتقل مع أهله إلى البوادي، ثم إلى قطر والبحرين، وأخيرًا إلى الكويت، وكانت لا تزال تحت حكم العثمانيين في سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م. ومن هناك قام الملك عبد العزيز باسترداد الرياض، بعد مقاساةِ محنٍ وشدائد، مع ستين رجلاً من أشداء القلوب وأقوياء العزم؛ فاقتحم بيت الوالي عجلان، وفتحه وتغلّب عليه، وتم له النصر، وعلا صوت أهل الرياض مع صوت الملك عبد العزيز بأن المُلْكَ لله ثم لعبد العزيز بن عبد الرحمن، وذلك في اليوم الخامس من شوال ١٣١٩هـ/١٩٠١م.

وينبغي أن ينوَّه أنه بفضل الله، ثم بمؤازرة الإمام محمد بن سعود وأبنائه وإخوانه لشيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب، قامت الدعوة في بلاد نجد، وذهبا بعد ما قضيا نحبهما إلى ربهما راضيين مرضيين. وقام بأمر الدعوة أبناء الإمامين وأحفادهما، واقترن اسم آل سعود بدعوة الشيخ وآله، فصار الآلانِ يؤازر بعضهم بعضًا، جنود الله بالسيف والشرع، تختفي الدعوة والدولة فترة ثم تبرزان في فترة أخرى، سنة الله في الذين خلوا من قبل، حتى أبرزها الله في النصف الأول من القرن الماضي على يد الرجل المبارك، إمام المسلمين، مجدّد المِلّة والدين، الملك الراشد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، تغمده الله برحمته ورضوانه. فأقام دولةً أعادت في أذهان الناس ذكرى دولة الخلفاء الراشدين، فقد أحيا ما اندثر من علوم كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وأمات البدع والمنكرات التي كانت ترتكب في أقدس بقاع الله. فبارك الله عليه ففتح خزائن الأرض وأمر أرضه بإخراج كنوزها ووضعها في يده ثم في أيدي أبنائه، خلفائه الغر الميامين، ينفقون في سبيل الله وإقامة دينه وشريعته نفقة سخية سخّاء

في بلادهم التي ملكوا ناصيتها، ثم في بلاد المسلمين في أنحاء العالم، وآثارهم ظاهرة وواضحة لكل ذي عينين أينما حل وفي أيّ بلاد ارتحل.

الفصل الرابع: واقع الأمن في شبه الجزيرة العربية قبل الملك عبد العزيز

لقد مرت على الجزيرة العربية أطوار مختلفة من حيث العمل وتنفيذ حكم الكتاب والسنة، وقد سبق الإسلامَ عصرٌ يسمى في الإسلام «الجاهلية»، وكان الأمن على الأنفس والأموال والأعراض فيه مفقودًا، وكانت الوثنية سائدة عليهم. روى الإمام أحمد وغيره من قول جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أمام ملك الحبشة النجاشي: «**أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ**»...الخ.[٢٨]

فببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته صارت الجزيرة كلها أمنًا وأمانًا.

روى البخاري عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، قال: بينا أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «**يا عدي، هل رأيت الحِيرَةَ؟**» قلت: لم أرها، وقد أُنْبِئْتُ عنها، قال «**فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ**» قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّار طيء الذين قد سعّروا البلاد «**وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى**». قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «**كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَلَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولاً فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالاً وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ جَهَنَّمَ**». قال عدي: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**». قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ولئن طالت بكم حياة، لترون ما قال النبي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: يخرج ملء كفه.[٢٩]

ومن هذين الحديثين نقدر أن نتصور كيف كان حال الجزيرة في الجاهلية من حيث الأمن والدين وكيف كان الناس في الفقر والجوع قبل الإسلام.

وإن من وعد الله الصادق لعباده الصادقين ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[٣٠]

فلما آمن الناس واتقوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين وخير القرون، كانت حالة المسلمين الأمنية والاقتصادية من أحسن ما تكون، وكانت أيامهم أنضر الأيام رغدًا وأمنًا، شرّق فيها المسلمون وغرّبوا وأبحروا وأصحروا وأنجدوا وأَتْهَموا لنشر دين الله، ودَخَل الإسلام في الوبر والمدر، كل ذلك بفضل الله ثم بالعمل بدين الله الخالص.

كانت الجزيرة تشتعل بنار الجوع والخوف فأبدل الله جوعها رغدًا وخوفها أمنًا. وبقيت حالة الجزيرة العربية على الأمن والاستقرار لما كانت الخلافة الإسلامية قائمة بقوتها وعملها بالكتاب والسنة، ولكن الفتن كانت ترفع رؤوسها وتبدي أنيابها فيما بين المسلمين لأجل تفرقهم فِرَقًا ومللاً كوقائع الخوارج والشيعة والروافض، وفتنة خلق القرآن، والتعصبات المذهبية التي أوذِيَتْ بها الأمة وذاقت الأمرّين فيها على مرّ القرون.

أما الأمن العام فكان يسود الجزيرة إلى قرون كثيرة، ثم ساءت الأحوال حين صارت الجزيرة مقسومة بين قبائل شتى و لم تكن لها دولة جامعة في القرون الأخيرة، وقد رأينا بعض أحوالها في ذكرنا لحالة الدولة السعودية الأولى والثانية.

وكاد أن يُجمِع المؤرخون أن الأمن كان مفقودًا في جميع أنحاء الجزيرة قبل حكم الملك عبد العزيز -رحمه الله-، بل تذكر المصادر الموثوق بها أن الأمن كان ضائعًا في جميع أنحاء الجزيرة منذ قرون.

ولما مَلَكَ الإمام محمد بن سعود ثم بعده عبد العزيز بن محمد، اتسعت الدولة على غالب أنحاء الجزيرة على ما تقدم ذكره عن الشوكاني في «البدر الطالع»، وانتشر في تلك الفترة من الزمان - أعني في عهد محمد بن سعود وعبد العزيز بن محمد - في الجزيرةِ الأمنُ في الطرق والبراري والقفار، ومحيت البدع وأحييت السنن، ثم عاد الحال إلى السلب والنهب وإلى بناء القباب وإحياء البدع والشركيات في الجزيرة بعدهما.

وأما الأمن ما قبل الملك عبد العزيز فكان مفقودًا تمامًا لا يأمن المسافر في طريقه، بل لا يأمن الرجل على نفسه وماله وعرضه حتى في بيته. وله أسباب من أهمها انعدام الدولة الحازمة التي تجمع رؤوسهم وتردع شرارهم، ولذا كانت القبائل تتصرف كما تريد ولا تبالي بالدولة أو الإمارة التي تعيش فيها، وذكرنا فيما سبق أن الأحوال في عهد الإمام عبد الرحمن بن فيصل أو بالأحرى في عهد أخيه عبد الله تزعزعت لما صارت نجد كلها تابعة لآل الرشيد.

إن هذه الأحوال المتزعزعة جعلت الناس يتطلعون إلى قيادة قوية تقيم الأمن وتفصل بين الناس بالعدل. قال فهد المارك: «إن عادة النهب والسلب والغزو وافتراس القوي للضعيف هذه الصفات الناتجة عن عدم وجود السلطة القوية المهيمنة التي تردع هؤلاء عن ارتكاب هذه الأعمال وتلك الأفعال الشنيعة التي تعتبر في مفهوم رجال ذلك العهد من صفات الشجاعة والبطولة والرجولة، ومن يتقاعس عنها يعتبره رجال عصره جبانًا لا يستحق الاحترام بل ولا يجد من يصاهره».[٣١]

وقال أيضًا: «يحدثني شيخٌ عُمِّر إلى ما فوق مائة سنة، محدثي هذا توفي منذ ثلاثين سنة وهو سلمان ابن رشدان الذي ورد اسمه في مؤلفي «من شيم العرب» أكثر من مرة، يقول سلمان: إن علي بن رشيد كان تقيًا ورعًا وشجاعًا في آن واحد، ولكن ورعه وتقاه يمنعانه من أن يشارك رجال قبيلته شمر في الغزو والنهب كما أن تقاليد مجتمعه تفرض عليه أن لا يشذ عن بني قومه وفي إحدى الغزوات التي شنتها قبيلته على بطن من القبيلة يقال لهم الجحيش كان علي في مقدمة المهاجمين إلا انه لم يشارك رفاقه في الغنيمة، وعندما سأله قومه عن عدم قبوله للغنيمة على الرغم مما شاهدوه من شجاعة وإقدام قال لهم: إنني أخاف الله من أن استحل مال أخي العربي المسلم، وحينما سألوه ثانية لماذا يشاركهم في الغزو ما دامت هذه عقيدته؟ قال: أخشى أن لا أجد منكم من يتزوج بناتي كما أخشى أن لا يجد ولداي عبد الله وعبيد الله من يقبل مصاهرتهما».[٣٢]

هذه صورة عن الأمن في تلك الأيام كما أنها صورة حية عن الحياة الاجتماعية في شبه الجزيرة قبل أن يوحّدها الملك عبد العزيز. وكما أشرت سابقًا، فإن حالة الجزيرة كانت تنتظر رجلاً حازمًا يجمع ما تفرق من الجزيرة في دويلات وأقاليم. وقد ذكر فهد المارك أن الجزيرة كانت مقسومة على عدد من الوحدات الإقليمية:

١- شمالي نجد، يوجد في بلاد الجوف الشيخ نواف بن شعلان، وكانت الحرب بينه وبين ابن رشيد سجالاً.

٢- بلدة تيماء كانت خاضعة لنفوذ أميرها عبد الكريم بن رمان.

٣- مدينة حائل عاصمة إمامة آل رشيد ذوي النفوذ الذي لا يضارعه نفوذ في شمالي نجد، بل ولا يضارعه نفوذ في نجد كلها.

٤- القصيم فيه مدينتان: مدينة بُرَيْدة وقراها وأمراؤها آل أبا الخيل.

٥- مدينة عنيزة وقراها وأمراؤها آل سليم وأبناء عمهم آل يحيى.

٦- مدينة الرياض وما تبعها كالوشم وقراه وقاعدته شقراء، وسدير قاعدته المجمعة، ويليها الزلفي والمجمل وقاعدته حريملا وقراه إلى الخرج، ووادي الدواسر، كل ذلك كانت تحت نفوذ الإمام عبد العزيز.

٧- الأحساء.

٨- القطيف، وكانت هذه المدينة وسابقتها تحت الحكم العثماني.

٩- الحجاز مكة والمدينة ونواحيهما مما هو تحت حكم الأتراك وبعد انقلاب الملك حسين بن علي شريف مكة على الدولة العثمانية أصبح الحجاز بكامله تحت نفوذه.

١٠- عسير وقاعدته أبها كانت تحكمها آل عائض.

١١- قسم من تهامة كانت تحكمه أسرة الأدارسة قاعدتهم مدينة صبيا.

ثم ذكر أكثر من ثلاثين وحدة قبلية ثم قال: إذا كانت كل وحدة من الوحدات الإقليمية تشكل في واقع أمرها حكومة مستقلة، فإن أمراء القبائل يشكّل واحد منهم سلطة الحكومة.[٣٣]

ولما كانت البلاد مقسومة في هذه الأقاليم والوحدات، والناس يعانون من الفقر والجوع وقلة المطر، كان من الطَبَعي أن تهجم قبيلة على أخرى لتأخذ مما في أيدي الآخرين، ثم تعود فتهجم القبيلة التي هوجمت على الأخرى التي هَجَمَتْ لتحصل على ما فقدت من الأموال.

وعند جلب الأقوات والمؤن عن طريق التجارة من المناطق الأخرى من داخل الجزيرة أو خارجها، كانت القوافل تحمل السلاح وتُعِدّ لها عدة كافية، وكلما كثر عددهم كانوا إلى النجاة من أيدي القبائل أقرب، وقد يصطحبون معهم من كل قبيلة يجتازونها رجلاً أو أكثر، يسمونهم الرفق (جمع رفيق)، فكانوا بمثابة جواز السفر لهم.[٣٤]

والحجاج الوافدون من البلاد الأخرى من إيران وغيرها ما كانوا يقدرون على أن يجتازوا أراضي القبائل إلا بعد أن يدفعوا من المال ما يرضيهم، ويسمون المال المدفوع لهم حقَّة، أي: أن ذلك حق مشروع لهم.

وكان أسوأ الناس حظًا أولئك الذين يأتون من أفريقيا السود البشرة، فهؤلاء ينهبهم اللصوص ويذهبون بهم إلى سُوَيقة مكة فيعرضونهم للبيع كما يعرض المتاع. وأكثر من كان يتم اختلاسهم هم الصغار من الصبيان والفتيات الحديثو السن.[٣٥] وكان حجاج بيت الله يؤخذ منهم ضرائب باهظة،[٣٦] وطريق جدة ومكة أيضًا كان محفوفًا بخطر النهب والسلب.

يقول رفعت باشا يصف طريق جدة إلى مكة: «وبه جملة قلاع ذات اليمين وذات الشمال يقيم بها جنود أتراك وبه أماكن أخرى يقطنها عساكر الشريف غير النظامية، وهؤلاء الحراس وُجِدوا للمحافظة على الأمن بالطريق، ولكنهم كما سمعت لا يفارقون أماكنهم لرد الغارات والضرب على أيدي اللصوص وقطاع الطريق ولو كان ذلك بمرأى منهم ومسمع إلا إذا أمرهم الوالي، وأين هو منهم؟! وكثيرًا ما سلب الحجاج أمتعتهم إذا تأخروا عن القافلة لإصلاح الأحمال أو قضاء بعض الضرورات، وإذا ما سئل هؤلاء الحراس لماذا لا تقومون بالواجب قالوا: أمريوك، أي: ليس عندنا أمر، فما أقبح العذر!»[٣٧]

ويذكر أيضًا أنه في يوم ١٧ ذي القعدة قبل أن يصل هو إلى مكة، سطا العربان على قافلة كانت ببحرة بين جدة ومكة، فقتلوا من رجالها ونسائها وجرحوا كثيرين، وسلبوا المتاع والنقود والحلي، وكان فيها كثير من المصريين والسودانيين، يقول: «فلما وصلنا إلى مكة ٢٩ ذي القعدة هرع الحجاج إلينا وبثوا شكواهم وفقد المال...» الخ.[٣٨]

وكان الأمن مضيَّعًا إلى حد لا يُؤمَن على أحد، حتى من أفراد العاملين للحجاج والجمَّالين الذين يحملون الحجاج وخاصة في طريق المدينة كانوا يغدرون بهم. قال رفعت باشا: «وقد أراد بعض الحجاج

المصريين أن يسافروا إلى المدينة قبل حضورنا وتجمعوا في المكان الذي يعسكر فيه المحمل بعد أن سلموا أجرة الجِمَال للجمّالة فاعتدى هؤلاء عليهم فقتلوا وجرحوا وسلبوا ثم هربوا».[٣٩]

وكان الخوف في الحجاز والذعر من الأعراب في طريق المدينة يمنع بعض قوافل الحجاج من الذهاب إلى المدينة، فيضطر بعضهم أن يرجعوا من بعض الطريق وقد وصلوا قريبًا من المدينة ولا يقدرون على الوصول إلى المدينة خوفًا منهم.

واختلال الأمن في الجزيرة وبالأخص في الحجاز كان أمرًا مشهورًا على مدى قرون حتى جاء آل سعود في الدولة السعودية الأولى فأمّنوا الطرق، ولما ذهبت دولتهم رجع الحال في الكهوف والجبال والبراري والمدن كما كان قبل، يقتلون الحجاج وينهبونهم وكان عيشهم مما يحصلون منهم.

وذكر شاهد عيان ممن قد ابتلي مع هؤلاء العربان، وهو الشيخ عبد الله بن صالح الخليفي رحمه الله، فقال: «وقد حججت في وقت الخوف ثلاث حجج وجرى لي عدة وقائع مع الأعراب قطاع الطريق، وبمناسبة تبديل الخوف أمنًا أذكر واقعة واحدة تحدّثًا بنعمة الله وشكره. ذلك أني في سنة ١٣٣٨هـ [١٩١٩م] ركبت حاجًّا مع رفقة لا تقل عن مائتي راكب وسرنا على طريق المدينة المنورة قاصدين بيت الله الحرام ومعنا الرفقاء والمجيرون الذين بذلنا لهم فوق ما يستحقون ويسمون ذلك «خاوة» يأخذونها على الحجاج على طريق الفُرُع (يطلق على عدة قرى من نواحي المدينة على طريق مكة، وبها نخل ومياه كثيرة) بزعمهم أنها ديارهم وأهلها قبائلهم لنسير معهم آمنين. فانعكست علينا الحال إذ مشوا بنا بالمكر والختال، فلما وصلنا الفُرُع أقاموا بنا يومين وكلما طلبناهم تعللوا بأن أهل الطريق لم يسمحوا بمروركم من هذا الطريق حتى تؤدّوا لهم شيئًا تطيب به نفوسهم، فبين أخذ وردّ قرروا على كل نفر ثلاثة مجايدة (دَراهِم مجيدية) زائدة عما دفعناه سابقًا، ومع ذلك يُلزِموننا أن نشتريَ منهم العَلَف بما يقولون وقد أحاط بنا ليلاً ونهارًا بين سرقة ونهب واختلاس وقهر، ظلمات بعضها فوق بعض. فلما تم قرارهم قاموا إلينا بعنف وغلظة ليجمعوا ما قرروا».[٤٠]

وحتى القبائل القاطنون في أطراف مكة لم يكونوا يأمنون على أنفسهم وأنفس أهلهم. وقد كنت بفضل الله عضوًا في لجنة تجديد أعلام الحرم المكي -وهو شرف لي- مع أعلام العلم والفضل الشيوخ الكرام محمد بن عبد الله السبيِّل وعبد الله بن منيع -حفظهما الله- وعبد الله البسام -رحمه الله-، فكنا عند التحقيق والتثبت لمسار الحرم في بعض الجوانب وخاصة جهة طريق اليمن - وقد لا يكون الجبل من مسار الحرم ولكن - كنا نجد على بعض الجبال مواقع مصنوعة من الأحجار مثل رَكِيّ البئر، فكان الشيخ عبد الله البسام -رحمه الله- يؤكد لنا أن هذه الأمكنة ليست من أعلام الحرم، إنما هي أمكنة اتخذها البدو أيام الخوف للتحصّن فيها ليلاً مع أهليهم وعندهم أسلحتهم، حتى إذا قرب منهم أحد رشقوه من داخل هذه الأمكنة بالبنادق.

وذكر لنا العلامة الشيخ محمد بن عبد الله السبيِّل عن بعض كبار السن الذين سمع منهم أن البدو في

داخل مكة كانوا يتحصنون في مثل هذه المواقع بجبال مكة حفظًا لأنفسهم، لكنهم إذا وجدوا الحجاج تحت الجبل، نزلوا على جناح السرعة لينهبوهم ويقتلوهم. وقد حدّث عن بعض أهل بريدة أنهم جاؤوا للحج فنزلوا ليلاً عند جبل من جبال مسفلة وطبخوا الطعام في الليل، وبينما كانوا يستعدون لتناول الطعام، لم يرعهم إلا أن نزل من رأس الجبل ناس مسلحون وحملوا القدر إلى مكمنهم في الجبل. يقول -حفظه الله- فترجَّوا منهم أن خذوا الطعام ورُدّوا إلينا القدر، فلم يردّوه لهم وهدّدوهم بالقتل إذا رفعوا الصوت.

وقد حدثني أخو جدي محمد يار خان أنه حج مع جدي وعمره سبع عشرة سنة، ومما ينبغي أن يذكر بالمناسبة أن حجهما كان في السنة التي دخل فيها الملك عبد العزيز سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م مكة المكرمة وكان الملك علي بن الحسين قد تحصن في جدة وأمّن أطرافها بالمتاريس الشائكة، فحاصره وحاصرها الملك عبد العزيز ومع اقتراب موسم حج ذلك العام لما وصلت الأخبار بحصار جدة - وكانت جدة من أهم موانئ الحجاز للحجاج القادمين من آسيا وغيرها - أعلن المخالفون للعقيدة الصحيحة في بلادهم أن الحج لا يمكن هذا العام، ومن قبلُ كان المبتدعة من الهند يمنعون الناس من الذهاب إلى الحج ما دام الحجاز في يد الوهابي الملك عبد العزيز. فأذاع الملك عبد العزيز بيانًا أعلن فيه استتباب الأمن في الطرق الموصلة إلى مكة من موانئ رابغ واللِّيث والقُنْفُذة.[٤١] فحكى لي الجد أنهم نزلوا عن طريق ميناء شعيبة أو الليث. ولما خرج جدي وأخوه إلى المدينة اشترى أخو الجد سيفًا كبيرًا لأن طريق المدينة لم تكن أُمِّنت في ذلك الوقت، ليقاتل به البدو المهاجمين. فذكر أنهم سمعوا في الطريق صياحًا وعويلاً من بعض القوافل التي كانت أمامهم، فاستأذن من أخيه ليذهب إليهم فيقاتلهم، ولكنه قال: ادع الله أن يسلمنا، ولم يأذن له.

ولما كنت في الجامعة الإسلامية قبل أكثر من أربعين سنة وذهبت إلى الهند، وعرف أخو جدي حال الأمن، كان يسألني بشغف وتشوّق وتشوّف عن أمور المملكة ويفرح بسماعها.

وقد ذكر لي أحد زملائنا مشيرًا إلى جبل مقابل جبل حراء على يسار الداخل إلى مكة من جهة الشرائع، أن هذا الجبل كان مِلكًا للقبيلة الفلانية وقبل أيام الملك عبد العزيز -رحمه الله- كان طريق الحجاج القادمين من جهة الطائف والعراق، فكانوا يبطشون بالحجاج ويأخذون منهم ما يملكون من الأموال، وربما قتلوهم بعد سلب أموالهم. يقول الزميل إن شخصًا من هؤلاء وقد بلغ من العمر كثيرًا قد حكى له أنهم كانوا يقتلون الناس حتى إن أحد الحجاج لم يجدوا معه شيئًا فنزعوا عنه إحرامه ودحرجوا عليه صخرة ورجعوا في اليوم التالي فإذا هو قد مات.

والحديث عن هذا الجانب طويل، والوقائع الواقعة لا زالت في أذهان الناس حاضرة مستحضرة. يقول شوقي بك في قصيدته «صدى الحجاج»[٤٢]:

ضج الحجاز وضج البيت والحرم واستصرخت ربها في مكة الأمم
قد مسها في حماك الضر فاقض لها خليفة الله [؟] أنت السيد الحكم
تلك الربوع التي ريع الحجيج بها أللشريف عليها أم لك العلم
أهين فيها ضيوف الله واضطهدوا إن أنت لم تنتقم فالله منتقم
أفي الضحى وعيون الجند ناظرة تسبى النساء ويؤذى الأهل والحشم
ويسفك الدم في أرض مقدسة وتستباح بها الأعراض والحرم

وقال أيضًا:

خليفة الله شكوى المسلمين رقت لسدّة الله هل ترقى لك الكلم
الحج ركن من الإسلام تُكْبِره واليوم يوشك هذا الركن ينهدم

كانت هذه الحالة السيئة في الحجاز، ولكن الله الرحيم الودود قد أنزل عليهم رحمته، فأرسل عبده عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود لإقامة الأمن الذي لم يوجد له نظير إلا في خير القرون، والحديث عن هذا الأمن يطول.

يذكر الأمير شكيب أرسلان بعض وقائع الخوف وإخلال الأمن عندما حج في الأيام الماضية ما قبل الملك عبد العزيز، ثم ما رأى من الأمن الوارف الظلال في عهد الملك –وقد رأى العهدين– فقال: «فسبحان الذي أدال من تلك الحال لهذه الحال، وأوقع الرعب في قلوب الدُعّار في السهول والأوعار. وليس في باب الأمن في ممالك ابن سعود متطلع لمزيد، وقُصارى ما يتمنى الإنسان دوام هذه النعمة».[٤٣]

وإن سأل سائل ما هي الأسس والمقومات التي مكّنت هذا الإمام الراشد من إقامة الأمن، الأمن الذي عجزت عنه قرون خالية ولا يأتي يوم فيها إلا وبعده شرّ منه؟

١– فأول سبب أرى أنه إخلاصه الكامل لدين الله الخالص، الذي تعلّمه وفهمه واعتقد به وعمل به كما ينبغي، «**إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**». رواه مسلم.[٤٤] كان إمامًا متّقيًا الله، متضرعًا إليه، متوكلاً عليه، مخلصًا لما قام به، وما كان يريد إلا إقامة شرع الله في الأرض التي يملّكها الله له. ذكر الزركلي: «أخبرني أحد ضباط القصر الملكي، قال: رأيت الملك عبد العزيز في الهزيع الأخير من الليل عند صلاة الفجر يتمسك بأستار الكعبة ويدعو الله قائلاً: اللهم إن كان هذا الملك خيرًا لي وللمسلمين فأبقه لي ولأولادي، وإن كان فيه شر لي وللمسلمين فانتزعه مني ومن أولادي».[٤٥]

إن الإخلاص لدين الله الخالص يظهر بجلاء في كل أقواله وخطبه التي خاطب فيها الناس، ولم

يسمع التاريخ بعد الخلافة الراشدة من خلفاء الإسلام وملوكهم مثل هذه الكلمات المخلصة لدين الله.

يقول -رحمه الله-: «دستوري وقانوني ونظامي وشعاري دين محمد -صلى الله عليه وسلم-، فإما حياة سعيدة وإما موتة سعيدة».[٤٦]

ويعلن هذا الملك السلفي بكل اعتزاز فيقول: «أنا مبشّر بدين الإسلام ونشره بين الأقوام. أنا داعية لعقيدة السلف الصالح، وعقيدة السلف الصالح هي التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وما جاء عن الخلفاء الراشدين. أما ما كان غير موجود فيهما فأرجع بشأنه إلى أقوال الأئمة الأربعة فآخذ منها ما فيه صلاح المسلمين».[٤٧]

وغيرها من الكلمات المباركة التي صدرت من قلبه المؤمن بربه، الواثق برحمته. فكان هذا أعظم سبب لتمكين الله له ناصية الجزيرة وإقامة الأمن فيها.

٢- من أعظم الأسباب أيضًا حزمه وصرامته لإقامة دين الله، يقول رحمه الله: «اسمعوا إيها الإخوان، أنا عندي أمران لا أتهاون في شيء منهما، ولا أتوانى في القضاء على من يحاول النيل فيهما ولو بشعرة. الأول: كلمة التوحيد، لا إله إلا الله محمد رسول الله، اللهم صل وسلم وبارك عليه، إني والله وبالله وتالله أقدّم دمي ودم أولادي وكل آل سعود فداء لهذه الكلمة لا أضن به. والثاني: هذا الملك الذي جمع الله به شمل العرب بعد الفرقة، وأعزهم به بعد الذلة، وكثرهم بعد القلة، فإني كذلك لا أدخر قطرة من دمي في سبيل الذود عن حوضه».[٤٨]

٣- ومن أسباب إقامة الأمن جَعلُ دستورِه الكتابَ والسنةَ والعمل بهما، حتى حينما طلبت الأمم المتحدة من الدول التي في عُضْوِيتها أن ترسل إليها نسخة من دستورها وجّه الملك إليها خطابًا ينص فيه على أن القرآن الكريم هو دستور البلاد وقانونها الوحيد.[٤٩] وكان الأمر في الجاهلية الأولى قبل الإسلام أسوأ من حيث فقدان الأمن والضلال عن دين الله، ولكن الله أرسل رسوله بهذا الدين المتمثل في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فاهتدى الناس بهما ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾[٥٠]

وقد آمن بهذا المعنى الملك السلفي عبد العزيز، فساس الناس وقادهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بحلم وحكمة وأناة وتعقّل بكل معانيها، فأقام فيهم حدود الله وتعزيراته؛ لأنها هي الكفيلة بإقامة الأمن، فليتعظ حكام المسلمين إن كانوا يريدون الخير لأنفسهم وأمن بلادهم بسيرة هذا الإمام العظيم، أقام في ملكه المترامي الأطراف حكم الله، فأمّن الناس من خوفهم بفضل من الله ورحمته. ولتعلم الدنيا كلها أنه لا حل لمعاناة البشرية إلا في ظل نظام الإسلام السلفي فقط، لا غير.

٤- ومن أسباب إقامة الأمن في الجزيرة تعليم البدو وغيرهم، فالجهلُ كل داء فيه، ولهذا أمر الله عز وجل بالقراءة والكتابة في أول أيات أوحاها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، لكن القراءة والكتابة لا

تُؤتِيان أُكُلَهما الحسنة إلا إذا كانتا باسم الله.

أما إن كانتا بغير اسم الله، فهما عار وشنار ودمار للإنسانية كما نرى اليوم في العالم الكافر بالله، لذا بذل الملك الراشد جهده لجمع البدو الرحّل الذين كانوا يسعّرون البلاد بالنهب والسلب في الهِجَر، والهِجَرُ جمع هُجْرة وهي بيوت بناها للبدو وبنى معها المساجد وحفر لهم الآبار، وأسكنهم فيها بعدما كانوا متفرقين في الصحراء يقتلون وينهبون، فجمعهم في مكان واحد.

وحيث كان الباعثُ على القتلِ والنهبِ الجوعَ وعدم المعيشة، جعل لرؤساء القبائل والعشائر والبطون والفخوذ قواعد سنوية ليستغنوا بها عن الغزو، وبعث لسكان هذه الهجر «مطاوعة» أي: علماء يعلمونهم القراءة والكتابة والقرآن، حتى إن الإنسان إذا مر برجال تلك الهجر يسمع لهم دويًا كدوي خلية النحل، وهكذا صيّر الملكُ الحكيم من أولئك البدو قطاع الطرق الغزاة جنودًا زهادًا يأتمرون بأمره مؤمنين أن طاعته من طاعة الله.

وإذا كانت في أوائل ملك الملك عبد العزيز هذه الهجر أمثال قرى صغيرة فقد أصبحت اليوم مدنًا تحتوي على كثير من المعاني الحيوية في مدن المملكة من مدارس لتعليم الذكور والإناث إلى مؤسسات تعتني بالشؤون الاجتماعية والصحية والزراعية والمواصلات. فكانت هجرةُ هؤلاء البدوِ البواديَ والسكن في البيوت هِجرةً دينية محضة، فباعوا الإبل وشرعوا في دراسة الدين وغصّت بهم المساجد. وقاموا بالتكسب الحلال بالتجارة والزراعة، وساعدتهم الدولة بتهيئة الأرض وآلات الحرث والبذور.[٥١] وكانت الهجرة تقام فيها المساجد والآبار والمسكن، وكان عدد الهجر في ١٣٦٩هـ/١٩٤٩م قد بلغ ١٥٢ هجرة.[٥٢]

وكان يختار لتعليمهم من أصلح الرجال، وقد أمر العلامةَ الشيخ عبد الله القرعاوي رحمه الله بالتوجه إلى جيزان، فملأها علمًا وإيمانًا، وتخرّج على يديه علماء قاموا من بعده بإصلاح جميع المنطقة. فتعليمهم دين الله جعلهم إخوانًا متحابين في حين أنهم كانوا قبل ذلك يتعصبون لقبيلتهم حقًا أو باطلاً.

الفصل الخامس: الحالة الدينية في شبه الجزيرة العربية قبل الملك عبد العزيز

أنزل الله على رسوله الكتاب والسنة، وكلاهما وحي من الله، وجعل عليهما مدار دين الإسلام وأكمل هذه النعمة، فأعلن في عرفات يوم حجة الوداع: ﴿**ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ**﴾[٥٣] وأمر الله بإبقاء هذا الدين سالمًا من كل شوائب البدع، وجعل كل بدعة ضلالة. فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

لذا وجب أن لا يُدخِل أحدٌ في دين الله شيئًا ليس منه، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم وأنذر بوقوع الخلاف ودخول عقائد باطلة في الدين. ففي حديث العرباض بن سارية: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ**

بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ».(٥٤)

وبشر صلى الله عليه وسلم بوجود طائفة تسعى للدعوة إلى الدين الخالص: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**».(٥٥)

وإذا نظرنا إلى أحوال المسلمين في الجزيرة قبل الملك عبد العزيز وجدنا أن جميع أنحاء المملكة كانت فيها بدع وأمور شركية عدا منطقة نجد، فكان الأكثر فيها على العقيدة السلفية، أما الأجزاء الأخرى فكما أنهم لم تكن لهم دولة جامعة تقيم لهم الدين الخالص، كذلك الأكثرون كانوا غارقين في بدع كثيرة حتى العلماء، فقد كانوا متشبّثين ببدع الأشعرية والتصوف والتعصب المذهبي والتوسل بغير الله، يتناحرون فيما بينهم لأجل مذاهبهم العقدية والفقهية.

ولما مكّن الله الملك عبد العزيز من ناصية الجزيرة رأى أن هناك تعصبات عقدية ومذهبية في الحجاز خاصة، مثل التعصبات القبلية في البدو، فنادى بتطهير البلاد من هذه التعصبات قائلاً: «من المسائل التي يجب أن نعمل بها وتُعَدّ في طليعة خدمة الدين الحنيف هي تطهير الإسلام من الأدران والخرافات التي علقت بالدين وهو بريء منها».(٥٦) وفي أي مكان وجدت القباب والمزارات والمشاهد أمر بهدمها.

ذكر محمد علي مغربي في «أعلام الحجاز» أنه أدرك قبر السيدة حواء بمدينة جدة، إذ كان في أوائل الأربعينات من القرن الثالث عشر الهجري تتوسطه قبة عظيمة، ومن أمام القبّة وخلفها ممر طويل، ويدخل الناس والحجاج خاصة للزيارة، ويتولى أحد المشايخ إدخال الحجيج وتلقينهم الدعاء للزيارة، ويتقاضى نقودًا نظير ذلك. وحينما دخل الملك عبد العزيز جدة سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م، كان من أوائل الأعمال التي قام بها هدم قبة حواء، وقفل الزوايا المنسوبة إلى الطرق الصوفية، وإبطال البدع التي كانت سائدة في ذلك الزمان والتي كان يتقرب بها الناس -كما يظنون- إلى الله تعالى.(٥٧)

وقد ذكر في ترجمة الشيخ أحمد بن عيسى صاحب شرح نونية ابن القيم، أنه قد جلس أثناء إقامته بمكة مع أمير مكة عون بن محمد بن عبد المعين (ت١٣٢٣هـ/١٩٠٥م) فأقنعه بهدم القباب المشيَّدة على القبور في مكة وجدة والطائف، فهدمها إلا قبة حواء وقبر خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وقبة ابن عباس بالطائف، فإنه لم يهدم هذه القباب الثلاث خوفًا من أن يعزله السلطان عبد الحميد العثماني عن الإمارة.(٥٨)

قلت: كان الله قد ادّخر هذا الخير للملك عبد العزيز فهدمها ومحا البدع التي كانت ترتكب هناك من غير مخافة لومة لائم.

هذا وقد كان العلماء في الحجاز عامة والحرمين خاصة يعتقدون عقائد بدعية ويعادون العقيدة السلفية، وما دام العلماء على ضلال في العقيدة فلا بد أن تنتشر عقيدتهم عن طريقهم إلى أنحاء العالم، ويدل عليه ما جاء في كتاب «المهنَّد على المفنَّد» -يعني عقائد علماء أهل السنة بديوبند الهند- تأليف

خليل أحمد سهارنبوري في سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م. والكتاب عبارة عن جواب الشيخ خليل الحنفي الديوبندي على ما اتهم به من اعتقاده عقائد الوهابية، فوجّه إليه أكابرُ علماء الحرمين ستًّا وعشرين مسألة يخالفون فيها الوهابية، حتى يتثبّتوا من موافقة الشيخ للوهابية أو مخالفته لهم. وبداية نص الأسئلة:

«أيها العلماء الكرام والجهابذة العظام قد نسب إلى ساحتكم الكريمة أناس عقائد الوهابية، قالوا بأوراق ورسائل لا نعرف معانيها لإختلاف اللسان، فنرجوا أن تخبرونا بحقيقة الحال ومرادات المقال، ونحن نسالكم عن أمور اشتهر فيها خلاف الوهابية عن أهل السنة».

فذكروا في السؤال الأول شد الرحال إلى زيارة سيد الكائنات وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وأن الوهابية يقولون إن المسافر إلى المدينة لا ينوي إلا المسجد النبوي، والشيخ أجاب بموافقتهم في هذين السؤالين وكذا في الأسئلة الباقية.

والحمد لله رب العالمين قد نادى الملك عبد العزيز رحمه الله بمحو هذه العقائد البدعية وغيرها، وأمر بعقد اجتماع بين علماء مكة وعلماء نجد، وذلك للتفاهم والرد على الشبهات التي كان يثيرها المخالفون عن الدعوة المباركة من محمد بن عبد الوهاب وعن آل سعود.

فبعد أن بايع أهلُ مكة المَلِكَ عبدَ العزيز قال لهم: «قولوا لنا بصريح القول ما عندكم. فردّ الحاضرون: ما عندنا غير هذا. فقال الملك عبد العزيز: أعيذكم بالله من التقية لا تكتمونا شيئًا. فقال الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي: إننا نريد أن نجتمع بعلماء نجد فنتباحث في الأصول والفروع، ونقر ما نتفق عليه إن شاء الله. فأجابه الملك عبد العزيز إلى ما أراد، وقال: ما دام المرجع كتاب الله تعالى فلا سخط ولا غضب».

وفي الحادي عشر من جمادى الأولى سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، اجتمع علماء مكة في المسجد الحرام وهم: محمد حبيب الله الشنقيطي، وعمر باجنيد، ودرويش عجمي، ومحمد مرزوقي، وأحمد النجار، وجمال مالكي، وعباس مالكي، وعبد الرحمن زواوي، بعلماء نجد وهم: عبد الله بن حَسَن، وعبد الرحمن ابن عبد اللطيف، وهما من آل الشيخ وعبد الرحمن بن داود ومحمد بن عثمان الشاوي وعبد الله بن زاحم ومبارك بن باز، وأظهر كل فريق للفريق الآخر عقائده. وبعد بحث المسائل الأصولية والفرعية ودراستها اتفقوا على أن من أقر بالشهادتين وعمل بأركان الإسلام الخمسة فهو مسلم، وإذا أتى من الأقوال والأعمال ما يكفر فهو كافر يستتاب ثلاثًا؛ فإن تاب وإلا قتل، واتفقوا على أن من جعل بينه وبين الله وسطاء من خلقه يدعونهم ويرجونهم في جلب نفع أو دفع ضر كافرٌ حلالُ الدم والمال، وأن البناء على القبور واتخاذ السرج عليها وإقامة الصلاة فيها بدعةٌ محرمةٌ في الشريعة، وأن من سأل اللهَ بجاهِ أحد من خلقه فهو مبتدع مرتكب حرامًا[٥٩] وغيرها من الأمور.

كان الملك رحمه الله مرهف الحسّ في دينه وعقيدته، فكيف يصبر على الإقرار بالبدع؟ نعم، قد يصبر عليها لو كان يريد المُلْك والجاه، ولكن كما عرفنا أنه عاهد الله على أنه لا يريد إلا رفع راية

التوحيد.

كان الملك رحمه الله في إحدى زياراته للخرج في ١٧ من ذي الحجة ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م إذ دخل عليه شاعر من أهل نجد وفي يده قصيدة استأذنه في إلقائها وابتدأ بمطلعها: «أنت أملنا وفيك الرجاء»، فصاح الملك: «تخسأ»، ولمح في المجلس الشيخ حمد الجاسر، فقال: «علِّمْه التوحيدَ يا ابن جاسر».[٦٠]

والتقى يومًا بزعيم عربي وفي أثناء الحديث أراد هذا الزعيمُ التوكيدَ على مسألة معينة، فقال مخاطبًا الملك عبد العزيز «وحياة رأسك»، فرمقه ابن سعود بنظرة موحِّدة وقال له: «قل والله».[٦١]

بدعة المقامات

ومن أعظم البدع التي دامت قرونًا كثيرة لم يقدر على محوها أحدٌ من أمراء مكة والمدينة والحجاز بدعةُ المقامات الأربعة للأئمة الأربعة. وهو أمر مؤسف جدًا أن يتفرق المسلمون في أعظم ركن بعد الشهادتين: الصلاة. فقد بقي أكثر من ثمانية قرون ما يسمى بالمقامات الأربعة، وكان في بعض السنين مقام خامس وهو مقام الزيدية.

وقد ذكرت في كتاب «المسجد الحرام» أني قد بحثت كثيرًا كما بحث من سبقني ممن كتب في هذا الموضوع، فلم أجد أول من أنشأ هذه المقامات ولا السبب الذي تسبب لإنشائها. ولكني على يقين بأن إنشاء هذه المقامات لا بد وأن يكون حصل بعد مُشادّة واختلاف بين أتباع المذاهب، إما في نصب الإمام العام أو لأجل اختلافات في صحة صلاة أحدهم وراء إمام من غير مذهبه. ولذلك نرى العلماء الغيورين في كل زمان وهم ينكرون هذا المنكر وينادون بمحوه، ولكن لم يجد إنكارُهم آذانًا صاغية ونداؤهم قلوبًا واعية.

ولا بأس أن يقلد المسلم عالمًا بعينه في مسألة ما، ولكن لا يجوز له أن يتعصب لمذهب خاص، بحيث لا يقبل من غيره ولو ظهر الدليل خلاف مذهبه بوضوح. فالواجب على العامي الذي لا يفرق بين الأدلة ولا يميز الصحيح من السقيم والراجح من غيره أن يسأل أهل الذكر والعلم في كل عصر ومصر عمّا يوافق الشرع، ولا شرع إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم اجتهادات الأئمة المعتبرين فيما لا يوجد فيه نص من الكتاب والسنة، فيسأل عن الحق، ويأخذ به أيًّا كان مذهبُ مفتيه، وهو مقلد ومتبع في هذه الحالة لمفتيه، وليكن شعاره في هذا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾[٦٢]

وعلى المفتي أن ينظر في الأدلة الشرعية وأقوال الأئمة من غير أن يقتصر على مذهب معين، فإن الأئمة كلهم أئمتنا أئمة الإسلام، وكلهم بذلوا الجهد لبلوغ الحق، فلا يحرم نفسه من هذا الكنز الثمين والخير الكثير من فقه المذاهب بل من فقه الأئمة، فيفتي بقولٍ أقربَ إلى الصواب. ولا يجوز أن يتعصب لمذهبه فيخالف الكتاب والسنة أو يؤولهما تأويلاً غير سائغ، كما يقول أحد الأئمة الكبار من المنتسبين إلى بعض المذاهب في القرن الربع الهجري: «كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤولة أو منسوخة،

وكل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ»!

فمثل هذا التعصب لمذهبٍ معين وإمام معين ولو خالف المذهبُ الكتابَ والسنةَ نتائجه ضارة وخيمة على الإسلام والمسلمين، ومن أبشع نتائجه تفريق جماعة المسلمين إلى طوائف عدة يكيد بعضها لبعض، فكل واحدة منها تحاول التغلب على الأخرى، وتتربص الدوائر بغيرها بدلاً من أن يكونوا جميعًا صفًا واحدًا، وجسدًا واحدًا.

وإن التعصب المذهبي بلغ بينهم إلى حد جعلهم يُكَفِّر بعضهم بعضًا ويستحل ماله وعرضه، انظر ما قاله صاحب كتاب «مراقي الفلاح»: «فإن عُجن بمائها (البئر النجس الذي وقع فيه حيوان مات وانتفخ) يُلقى للكلاب أو يُعلِف به المواشي، وقال بعضهم: يُباع لشافعيٍ». فانظر كيف سوّى هذا الفقيه -غفر الله له- بين الكلاب والشافعية!

وأسوأ من هذا، إن شئتَ فانظر ما نقل الذهبي عن بعض الفقهاء المتعصبين أنه كان يقول: «لو كان لي أمر لأخذت الجزية من الشافعية»! توفي هذا الفقيه المتعصب سنة ست وخمسمائة.

وإذا عرفت أن بعض الفقهاء قد أفتى ببطلان صلاة الحنفي وراء إمام شافعي وبالعكس، هان عليك أن تفهم السبب الذي جعل في المسجد الحرام مقاماتٍ عدة ومصلياتٍ مختلفة.

قال ابن الهمام: «قال أبو اليسر: اقتداء الحنفي بشافعي غير جائز، لما روى مكحول النسفي في كتاب له سماه «الشعاع»: أن رفع اليدين في الصلاة عند الركوع والرفع منه مُفسِد، بناءً على أنه عملٌ كثير...ومنهم من قيّد جواز الاقتداء بهم كقاضي خان بأن لا يكون متعصبًا ولا شاكًا في إيمانه ويحتاط في موضع الخلاف».

وهذا لا بد وأن يكون له رد فعل من قِبَل الشافعية، فنرى أبا المعالي الجويني إمامَ الحرمين ذكر في كتابه «مغيث الخلق في ترجيح المذهب الحق» مسائل منسوبة إلى الإمام أبي حنيفة رحمه الله خطّأه فيها، ثم ألزم بصحة مذهب الشافعي، ومن جملة ما قال: «ولو عُرِضت الصلاة التي جوَّزها أبو حنيفة على العامي لامتنع من قبولها، والصلاة عماد الدين، فناهيك من فساد اعتقاده في الصلاة وضوحًا على بطلان مذهبه هذا».

وكذلك لم يُجَوِّز بعض الشافعية صلاة رجل شافعي وراء إمام حنفي، قال النووي: «(فرعٌ: اقتدى شافعي بحنفي وعكسه)، وفيه خلاف وتعم به البلوى، فإذا توضأ حنفي واقتدى به شافعي، والحنفي لا يعتقد وجوب نية الوضوء والشافعي يعتقدها، فثلاثة أوجه: أحدها وهو قول الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني: لا يصح اقتداؤه نوى أو لم ينو، لأنه وإن نوى فلا يراها واجبة فهي كالمعدومة فلا تصح طهارته».

وذكر ابن كثير في «البداية والنهاية»: «أن عزيز مصر، وهو الملك الأفضل ابن صلاح الدين، كان قد عزم في السنة التي توفي فيها وهي سنة ٥٩٥هـ[١١٩٨م] على إخراج الحنابلة من بلده، وأن يكتب

إلى بقية إخوانه بإخراجهم من البلاد».

وذكر أيضًا فقال: «وفيها (أي سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م) وقعت فتنة بدمشق بسبب الحافظ عبد الغني المقدسي، وذلك أنه كان يتكلم في مقصورة الحنابلة بالجامع الأموي، فذكر يومًا شيئًا من العقائد، فاجتمع القاضي ابن التركي وضياء الدين الخطيب الدَولعي بالسلطان المعظم والأمير صارم الدين برغش، فعقد له مجلسًا فيما يتعلق بمسألة الاستواء على العرش، والنزول والحرف والصوت، فوافق النجم الحنبلي بقية الفقهاء، واستمر الحافظ على ما يقوله ولم يرجع عنه، واجتمع بقية الفقهاء عليه وألزموه بإلزامات شنِيعة لم يلتزمها، حتى قال له الأمير برغش: كل هؤلاء على الضلالة وأنت وحدك على الحق؟ قال: نعم، فغضب الأمير وأمر بنفيه من البلد، واستنظره ثلاثة أيام فأنظره، وأرسل برغش الأسارى من القلعة فكسروا منبر الحنابلة، وتعطّلت يومئذ صلاة الظهر في محراب الحنابلة، وأخرجت الخزائن والصناديق التي كانت هناك، وجرت خبطة شديدة نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، فارتحل الحافظ عبد الغني إلى بعلبك، ثم سار إلى مصر فآواه المحدثون، فحنوا عليه وأكرموه».

هذه الأمثلة تلقي ضوءاً على شدة الاختلاف والتباعد في بعض الأحيان بين بعض أتباع المذاهب ومتعصبيهم.

وفي مثل هذا الجو الخانق، إذا أُنشِئَت مقامات ومصليات عدة للأئمة الأربعة أو الخمسة واستمرت إلى هذه المدة الطويلة فلا تستغرب أيها القارئ الكريم، لأن أولياء الأمور رأوا فيه حلاً وسطًا لحل النزاع فاختاروه.[٦٣]

ولكن تظهر عظمة عزيمة الملك الراشد عبد العزيز آل سعود وتوفيق الله له أنه بعد ما دخلت مكة والحجاز عامة في حكمه محا هذه البدعة وندعو الله تعالى أن لا ترجع هذه البدعة إلى يوم القيامة، وإن كانت ربما تحن إليها قلوب المتعصبين من أصحاب المذاهب المختلفة، ومن المبتدعة الذين يطالبون بإعادة بناء الأضرحة والقباب في الحجاز وغيرها.

فالإمام الذي بنى أساس دولته على الكتاب والسنة كيف يقر هذه البدعة وكيف يصبر على هذا التفرق المذموم؟

قال الملك الميمون قبل سفره إلى مكة: «إني مسافر إلى مكة لا للتسلط عليها، بل لرفع المظالم والمغارم التي أرهقت كاهل عباد الله. إني مسافر إلى حرم الله لبسط أحكام الشريعة وتأبيدها، فلن يكون هناك بعد اليوم سلطان إلا للشرع».[٦٤]

فأمر بتوحيد صفوف المسلمين في المسجد الحرام وراء إمام واحد، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وذلك في سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، السنة التي دخل فيها مكة المكرمة،[٦٥] وبذلك محيت عن جبين الأمة الإسلامية وصمة عار شانت وجهها قرونًا طويلة.

الفصل السادس: الحالة المعيشية في شبه الجزيرة العربية قبل الملك عبد العزيز

لا شك أن قلة العيش وقلة ذات يد الناس كانت في البدو سببًا للإغارة والنهب والسلب مع الجهل المطبق عليهم، وكان الفقر عامًّا في شبه الجزيرة قبل الملك عبد العزيز وحتى في بداية عهد الملك. وقد تحل بالبلاد أزمات، فلا يتيسر في بعض السنين القاحلة لأكثر أهلها من الفقراء حتى التمر. وكانت المجاعة تبلغ من الشدة والقسوة إلى درجة تجعل البعض يأكل أوراق الشجر والعشب، وقد يحفر البعض بيوت النمل ليحصل على حبيبات الشعير التي ادّخرها النمل. ومن هنا جاءت هجرة كثير من بيوتات نجد إلى البلاد الأخرى.(٦٦)

وفي أوائل حكم الملك عبد العزيز لم تكن في المملكة موارد الرزق إلا التمر الذي كان رهن الأمطار، وهو أيضًا شحيح قليل، والثروة الحيوانية القليلة. وهذا الأمر معروف ومشهور في المملكة وتعرفه الدنيا. وقد سمعت الشيخ عبد الله بن حميد -رحمه الله- وكان يحكي في مجلسه متحدثًا بنعمة الأمن والرخاء الآن، وضيق المعيشة قبل، أنه حدث مرة أن الملك -رحمه الله- مع بعض رفاقه قد أخطأوا الطريق أثناء سفرهم، فوصلوا عند كوخ، فقدم صاحب الكوخ للملك جريشًا عبارة عن شعير مغلي بالملح، ليس فيه أي شيء غيره من السمن ونحوه، وحلف أن لو كان في البيت شيء غير هذا لما ادخرته عنكم. فأكل الملك ورفاقه وحمد الله وحمدوه. ولما قام للخروج من عنده أعطى الملكُ صاحبَ الكوخ ورقة صغيرة، وقال له: إذا مررت بالقرية الفلانية أعط قاضيها هذه الورقة.

فبعد أيام لما ذهب إلى القرية, سلَّم الورقة وهو لا يعرف ماذا فيه وولّى خارجًا. فناداه فضيلة القاضي وقال: من أعطاك هذه؟ قال: لا أعرف، مر بي ناس وأعطانيها واحد منهم. فنظر فيها القاضي، فإذا فيها أمرٌ من الملك -رحمه الله- للقاضي: أن أعطِ حامل الورقة نصف ريال، فقال القاضي للبدوي: كان هذا الملك عبد العزيز، وأمرني أن أعطيك نصف ريال. من أين أعطيك؟ ما عندي شيء. مُرَّ عليَّ فيما بعد. فأوفى له القاضي نصف ريال في عدة مرات. هكذا كان الحال.

وكنا في دورة في حائل قبل أكثر من عشرين سنة تقريبًا، فدعا الأساتذةَ والطلبةَ في الدورة رجلٌ من أعيان حائل كبير السن في حديقته الواسعة الجميلة في خيام جميلة من الشعر. فذكر الحالة الأولى في المملكة من الفقر والجوع فقال: والله كنا صغارًا مراهقين، وكانت حالة المعيشة سيئة جدًا، فكنا نخرج لاصطياد القنفد، فإذا ظفرنا بقنفذ واحد كنا نتقاسمه عدة أفراد من أهل البيت ونحسبه غنيمة. ويذكر نعمة الرخاء فيشكر الله ويقول: والآن نحن في هذه النعم المتوافرة.

أقول بعد ذكر هذه الوقائع - والأمر أشهر من أن يعرف ويفصَّل - أرى سبب رخاء الناس في عهد الملك عبد العزيز وأبنائه البررة ما قبل اليوم هو إقامتهم للتوحيد والدين في ربوع بلادهم. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا

كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[٦٧]

ثم من أسباب الرخاء صلاح الملك وخشيته لله، وقد سمعت صاحب السمو الملكي الأمير متعب بن عبد العزيز آل سعود حفظه الله يذكر أن الملك عبد العزيز رحمه الله كان يجمع أولاده على مائدته ويلاطفهم ويضاحكهم، ويأكل معهم في الغالب ويستغلّ هذه الفرصة لتعليم الأولاد وتربيتهم. وفي يوم من الأيام لما قُدِّمت المائدة ما تناول إلا لقيمات ثم نادى الجارية تعالي بالماء أغسل يدي. فألححنا عليه ولكنه -رحمه الله- تأخر عن مكانه واتكأ على الجدار وبدأ يبكي، وسمعناه يقول: اللهم قد آتيتني هذا الملك وشعبي يتضور جوعًا. اللهم أطعمهم. اللهم هيئ لهم أسباب الرزق. ولم يزل يدعو حتى تركنا كلنا الطعام. فقال: أعطوا الطعام على الفقراء المجتمعين أمام القصر فوزع عليهم.

أقول: إن صلاح الملك عبد العزيز وتقواه رحمه الله، والتجاؤه إلى الله في جنح الظلام وخاصة في ثلث الليل الأخير قد يكون سببًا كبيرًا لفتح باب الرزق الواسع للأمة. قال الزركلي: «اعتاد (الملك) أن يستيقظ قبل الفجر بنحو ساعة فيقرأ سورة من القرآن الكريم ويتعبد ويتهجد، وكثيرًا ما يُسمَع له نشيج».[٦٨]

وكنا ندرس في الجامعة الإسلامية قبل أكثر من أربعين عامًا، وكان في الكلية مراقب يضبط حضور الطلبة وغيابهم كبير السن لا أستحضر اسمه الآن، وكان قد تشرف بصحبة الملك عبد العزيز رحمه الله في أسفاره. كان يقول: من عادة الملك رحمه الله أنه حتى في النزول في الصحراء في أسفاره ما كان يترك قيام الليل. كان يقوم في آخر الليل رويدًا والناس نائمون، ويقضي حاجته ويتوضأ رويدًا رويدًا ويصلي ويناجي الله عز وجل عند نزوله إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير، فسمعته في مناجاته وهو يبكي: يا رب قد كثرت رعيتي في هذه الصحارى والمدن، ولا يجدون رزقًا كافيًا. اللهم فأطعمنا ونحن جياع. وكان يتوسل بأسماء الله الحسنى خاصة بالوهاب والرزاق. قال: فإذا دخل وقت صلاة الفجر رفع صوته للصلاة فزأر زئير الأسد، ويقوم الناس ويصلي الفجر بالجماعة لا يمكن أن يتأخر أحد إلا بعذر معقول مقبول.

أقول: فلا نستبعد أن يكون الله سمع مناجاته بإخلاص، واستجاب دعواته وآهاته وأناته، فأمر الأرض بإخراج أثقالها من ثروات الذهب، وفجرها بينابيع البترول، ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[٦٩]

والآن بفضل الله تعالى هذه الدوله المباركة من أغنى دول العالم. اللهم أقم وأدم نعمك، وأدم أولياء أمورنا الذين أقاموا دينك الخالص وخدموا كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم.

الفصل السابع: واقع العلم والتعليم وأمور أخرى في شبه الجزيرة العربية قبل الملك عبد العزيز

وكان التعليم في نجد لا شيء بالنسبة لحاجة المسلمين قبل الملك عبد العزيز. نعم، كان التعليم معدومًا عند قطاع كبير من سكان نجد البادية وكان نادرًا بين فئات الحضر في هذه المنطقة،[٧٠] ولم يكن التعليم في تلك الفترة إلا امتدادًا ضعيفًا بعد الحركة القديمة في زمن الإمامين محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب.

وأما الحجاز فلمكانته الدينية لأجل مكة والمدينة واتصاله المستمر بالخارج مع علمائه وعوامه والمجاورين فيها فقد عرف قدرًا كبيرًا من نشاط الجاليات في مجال التعليم عن طريق التدريس بالمدارس والحلقات التي كانت تجري في عملها عن طريق التبرع بالأوقاف والهدايا مما زاد عدد المدارس الأهلية في الحجاز قبل الملك عبد العزيز رحمه الله. ولكن ينبغي أن يذكر أن هذه المدارس كانت لا تدرس العقيدة الصحيحة السلفية، وكانت تدرس الحديث للتبرك وتحلة للقسم، وكان المتخرج فيها يتخرج متعصبًا على المذاهب، وكان يشجعه في التعصب – خاصة في الحرمين الشريفين – وجود المقامات الأربعة وأوقاف المذاهب المختلفة والأربطة الموسومة باسم المذاهب، والمساجد المخصصة للمذاهب المنتشرة في المدينتين المباركتين والمدن الأخرى، وكذلك المدارس، وكان القضاء أيضًا منفصلاً لكل مذهب. فيدرس الطالب ويعتقد عقيدة أهل مذهبه حتى يسكن في الرباط المخصوص بأهل مذهبه، ويحصل وظائف من الإمامة والتدريس والقضاء وغيرها المخصصة للمذاهب، ولعله يحلم أن يكون إمامًا في المسجد الحرام في مقام إمامه أو قاضيًا بمكة والمدينة.

ولما مكن الله عز وجل الملك عبد العزيز من توحيد الجزيرة اهتم بالتعليم اهتمامًا كبيرًا. وقد مضى ذكر أنه في البدو بنى هجرًا مشتملة على المساجد والمساكن والآبار وأرسل لها وإليها مَن يعلّمهم من أهل العلم (المطاوعة) التوحيد ومبادئ العقيدة والعبادة.

ثم بدأ يفتح المدارس في أنحاء البلاد، ولكن ميزة هذه المدارس أنها تدرس العقيدة السلفية والكتاب والسنة مع علوم أخرى عكس ما كانت عليه المدارس السابقة في الغالب. ولأجل هذا الغرض جلب الإمام الملك علماء من الخارج أمثال بهجة البيطار، وعبد الرزاق حمزة، وشيخنا محمد تقي الدين الهلالي، والشيخ عبد المهيمن، والشيخ عبد الرزاق عفيفي وغيرهم –رحمهم الله–.

وكان أعرف الناس بالرجال، فكان يختار لكل ميدان رجالاً مخلصين للدين الخالص وللمملكة العربية السعودية الموحَّدة الموحِّدة. ومن جملة من طلبه للتدريس في المسجد الحرام الإمام المحدث محمد عبد الرحمن المباركفوري، صاحب «تحفة الأحوذي»، ولكن الشيخ قد اعتذر وبقي يخدم السنة في الهند، وكان مشغولاً بالأعمال العلمية التأليفية.[٧١]

وروى لي شيخنا العلامة محمد بن عبد الله السبيل حفظه الله أن الملك عبد العزيز رحمه الله كان قد

طلب من فضيلة العلامة رئيس هيئات الأمر بالمعروف آنذاك – وأظنه الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ[٧٢] رحمه الله – أنه إذا جاء علماء أهل الحديث من الهند في الحج فليرتّب لهم اللقاء مع الملك. قال الشيخ العلامة محمد السبيل –حفظه الله–: فجاء الشيخ عبد الحق الهاشمي المحدث والشيخ عبد الله اللكنوي في بعض المواسم، فتشرفا بلقاء الملك عبد العزيز –رحمه الله– مع فضلاء وعلماء آل الشيخ رحم الله الجميع. فطلب الملك –رحمه الله– من الشيخين أن يقيما في مكة ويُدَرّسا في المسجد الحرام.

قال الشيخ السبيل –حفظه الله–: فأما الشيخ عبد الله اللكنوي –رحمه الله– فلم يرجع إلى الهند من ذاك الحج، وأما الشيخ عبد الحق –رحمه الله– فقال للملك المعظم: ائذنوا لي أن أرجع إلى الهند لأنقل مكتبتي وأرتب أموري ثم آتي إن شاء الله. فرجع تلك السنة إلى الهند ثم رجع إلى مكة. وقد خدم الشيخان العقيدة السلفية والكتاب والسنة حياتَهما في المسجد الحرام وفي دار الحديث بمكة، ولم تكن دار الحديث المكية التي تحت إشراف الجامعة الإسلامية موجودة في تلك الأيام.

هذا وكان الجهد لتعليم الشعب مبذولاً في عهد الملك الميمون على قدم وساق حسب الإمكان، وأنشأ الملك –رحمه الله– في سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م إدارة المعارف العامة للتربية والتعليم، وشجع التعليم الأهلي حتى وصلت في آخر أيام الملك عبد العزيز ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م إلى ٣٢٦ مدرسة فيها ١٦٥٢ مدرسًا و٤٣٧٣٤ طالبًا، وكانت ميزانية المعارف في آخر أيام الملك رحمه الله سنة ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م عشرين مليونًا من الأريلة السعودية[٧٣] عدا البعثات الخارجية وخاصة إلى مصر.

ويدخل في أعمال التعليم في عهد الملك عبد العزيز أنه وجه عناية خاصة إلى كتب العلوم الإسلامية المخطوطة، فأمر بطبع طائفة منها أو شرائها، وتوزيعها مجانًا.[٧٤]

وقد سار أبناؤه البررة الكرام على نهج والدهم وخدموا العلم وبذلوا له ما لا يقدر قدره. فالآن وجدت في المملكة ثلاثون جامعة تقريبًا[٧٥] وآلاف المدارس في المملكة السعودية المباركة، ينفق عليها بلايين الأريلة. كما أنهم خدموا ويخدمون العلم والعلماء والدعوة حتى في العالم كله، ويرى الناظر آثار المملكة العلمية والدعوية أينما حل وارتحل، وانتشر متخرجو الجامعات السعودية ينشرون العقيدة السلفية في أقاصي الدنيا، وهذا أمر لا يحتاج إلى تفصيل وتمثيل.

كذلك وفق الله الملك عبد العزيز وأبناءه البررة الكرام، فأخذوا من كل جديد ما طاب وصلح لخدمة الشعب مع التمسك القوي بالدين الخالص والسلفية الحقة، اللهم فاحفظهم.

ويعلم كل من يرى بعين الإنصاف أن في عهد الملك عبد العزيز وأبنائه الكرام راجت علوم الكتاب والسنة، وعلوم الآلة، والعلوم والتقنية، ووجد كل جانب منها عناية فائقة.

ومن أراد التفصيل في خدمات المملكة في كل جانب من جوانب الحياة فلينظر الكتب المئوية التي أصدرتها كل وزارة وإدارة من وزارات المملكة وإداراتها، ليرى ما يسره وتقر به أعينه إن شاء الله، ولعلها في أعين الأعداء تكون سخنة عين.

ولا يجوز أن يختلف اثنان في أن المملكة العربية السعودية قد خدمت الشريعة والكتاب والسنة والعقيدة ما لم تخدم في سبعة قرون، بل إنّي أُفَضِّل خدمة المملكة للشريعة على خدمات القرون ما بعد خير القرون، فإن كثيرًا من المسلمين من القرن الرابع تفرّقوا في العقيدة والشريعة، فكان التقليد الجامد في العقائد الباطلة وكذلك في المذاهب مانعًا عن العمل بالعقيدة السلفية واتباع السنة، ولم يكن يُدرَس الكتاب والسنة، وإذا درسا فلم يكن إلا للعمل بما وافق المذاهب فقط، بل مرت أيام اعتبر بعضُهم العملَ بالكتاب والسنة ضلالاً، وعذب من ادعى فهم الكتاب والسنة للعمل بهما في بعض الأحيان واستغنى بهما عن كتب المذاهب. انظر «أضواء البيان» تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[٧٦] وجمعت في كتابي «التقليد وحكمه في ضوء الكتاب والسنة والآثار السلفية» بعض هذه الأقوال.

الخاتمة

هذا البحث عبارة عن تعريف موجز للجماعة والإمامة، واستعراض لحالة العالم الإسلامي قبل عهد الملك عبد العزيز، واستعراض موجز لحكم آل سعود مع اقترانه بدعوة آل الشيخ. وذكرت بعده حالة الأمن في شبه الجزيرة قبل الملك عبد العزيز، والحالة الدينية، والحالة المعيشية، وواقع التعليم، والتنبيه لما حصل في عهد الملك عبد العزيز ثم في عهود أنجاله من رُقيّ وازدهار في جميع مجالات الحياة مع التمسك القوي بالسلفية الخالصة، حتى صارت المملكة الآن من أرقى دول العالم مع تديّنها وسلفيتها. وهذا بلا شك يجعل الملك عبد العزيز –رحمه الله– أسوة وأنموذجًا مشرفًا للإمامة الصالحة المصلحة القائمة بدين الله جل وعلا.

وأخيرًا، إذا كان هناك نداء أو اقتراح، فأقول: قد عَلِمَت الدنيا كلها مسلمها وكافرها أن الأمن الذي تحلم به الإنسانية لا يمكن وجوده إلا في ظل إقامة الدين الخالص عقيدةً وعملاً، فهذا الذي جمع المتفرقين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾[٧٧]، وهو الذي يؤلف الآن بين الناس، وهو الذي بث الأمن في الدولة الإسلامية الأولى، وهو الذي يكون سببًا لبثّه الآن كما هو واضح في سيرة المملكة العربية السعودية. فيا ليت المسلمين في العالم يعلمون هذا المعنى، وخاصة مسئولو دول الخليج والبلاد المجاورة، وما أحراهم أن يلبّوا دعوة خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود –حفظه الله– بالوحدة الكاملة للعمل بدين الله، لا بالتعاون – فقط– الذي يعيشونه الآن، والله ولي التوفيق.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٧٨]

الهوامش

(١) دعوة محمد بن عبد الوهاب بين مؤيّديها ومعارضيها في شبه القارة الهندية (ص١١٧) وما بعدها.

(٢) لسان العرب (٨/٥٣-٥٤). وقد ذكر مثله عامة أهل اللغة.

(٣) انظر: الاعتصام (٢/٢٦٢).

(٤) انظر: الاعتصام (٢/٢٦٣)، ومفهوم السنة والجماعة (ص٥٦).

(٥) أخرجه أبو داود (٥/٦، رقم ٤٥٩٧)، وأحمد (٤/١٠٢)، وأبو عاصم في السنة (١/٣٢-٣٣)، وصححة الألباني في الصحيحة (رقم ٢٠٣ و٢٠٤).

(٦) الاعتصام (٢/٢٦٢-٢٦٥)، ببعض الاختصار.

(٧) صحيح. انظر السلسلة الصحيحة (رقم ٢٠٤).

(٨) شرح أصول الاعتقاد للالكائي (١/١٠٩).

(٩) صحيح مسلم (٣/١٥٢٣، رقم ١٩٢٠).

(١٠) سورة المائدة:٢.

(١١) المفردات في غريب القرآن (ص٢٤).

(١٢) سورة المائدة:٢.

(١٣) التوبة:١٢.

(١٤) لسان العرب (١٢/٢٤).

(١٥) الأحكام السلطانية (ص٢٩)، الإمامة (ص٦٩)، مقدمة ابن خلدون (١/١٥٨).

(١٦) الأحكام السلطانية (ص٣٣).

(١٧) يشير إلى قصة غزوة مؤتة.

(١٨) طرح التثريب (٨/٧٥). وانظر أيضًا مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٥/٢٢).

(١٩) سنن الترمذي (ص٦٠٣، رقم ٢٦٧٦)، وسنن أبي داود (٤/٢٠٠، رقم ٤٦٠٧)، عن العرباض بن سارية، وانظر الإرواء (٨/١٠٧، رقم ٢٤٥٥) للطرق الأخرى. وقال الألباني: لم أر في جميع هذه الطرق اللفظ الذي في الكتاب «وإن تأمّر»، وكلهم قالوا: «وإن عبدًا حبشيًا».

(٢٠) سنن الترمذي (ص٣٩٨، رقم ١٧٠٦).

(٢١) مرقاة المفاتيح (١/١٩٩)، ونحوه في مرعاة المفاتيح (١/٢٦٢).

(٢٢) الحديث والمحدثون (ص٤٢١-٤٢٣).

(٢٣) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي في مواضع مختلفة.

(٢٤) ينظر: مجموع فتاوى ومقالات متنوعة للعلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز (١/٣٦٠-٣٦٢)، ط.٣، ١٤٢١هـ، بتصرف يسير. وينظر أيضًا: تاريخ نجد لابن غنام (١/٨٠).

(٢٥) ينظر: تاريخ نجد (١/١٢٥ وما بعدها).

(٢٦) البدر الطالع (١/٢٦٣).

(٢٧) الدولة السعودية الأولى (ص٢٠٧-٢١٧)، شبه الجزيرة (١/٣٧-٣٨).

(٢٨) مسند أحمد (١/٢٠٢).

(٢٩) صحيح البخاري (٦/٧٥٧، رقم ٣٥٩٥). كتاب المناقب، باب علامات النبوة.

(٣٠) سورة الأعراف:٩٦

(٣١) من شيم الملك عبد العزيز (٣/١٦٣).

(٣٢) من شيم الملك عبد العزيز (٣/١٦٥).

(٣٣) من شيم الملك عبد العزيز (٣/١٦٦-١٧١)

(٣٤) من شيم الملك عبد العزيز (٣/١٧٥).

(٣٥) من شيم الملك عبد العزيز (٣/١٧٩)

(٣٦) مرآة الحرمين (٢/٧٥-٧٧، ١٢٤)

(٣٧) مرآة الحرمين (١/٢٥).

(٣٨) مرآة الحرمين (٢/٧٠).

(٣٩) مرآة الحرمين (٢/٧١).

(٤٠) مجلة الحج، العدد الثالث، رمضان ١٣٦٦هـ، نقلاً عن كتاب «الحرمان الشريفان» (ص١٥٦).

(٤١) شبه الجزيرة (١/٣٤٦)، والوجيز في سيرة الملك عبد العزيز (ص٨٧).

(٤٢) مرآة الحرمين (٢/٢٩٣).

(٤٣) الارتسامات اللطاف (ص٢٦٥).

(٤٤) صحيح مسلم (٤/١٩٨٧، رقم ٢٥٦٤).

(٤٥) من شيم الملك عبد العزيز (٣/١٣٠).

(٤٦) جريدة أم القرى، ٤/١٠/١٣٦٩هـ.

(٤٧) شبه الجزيرة (٣/٧٩٠)، والوجيز في سيرة الملك عبد العزيز (ص٢١٦).

(٤٨) أثر الدعوة الوهابية في الإصلاح العمراني والديني في جزيرة العرب وغيرها (ص١١٠-١١١).

(٤٩) الملك عبد العزيز أمة في رجل (ص٦١).

(٥٠) سورة الجمعة:٢.

(٥١) توحيد المملكة (ص١٧٢).

(٥٢) شبه الجزيرة (ص٢٦٣-٢٦٨).

(٥٣) سورة المائدة:٣.

(٥٤) أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٠٧) بإسناد صحيح.

(٥٥) أخرجه مسلم (رقم ١٩٢٠).

(٥٦) جريدة أم القرى، ٦/١٢/١٣٤٥هـ.

(٥٧) أعلام الحجاز (ص١٣٨)، نقلاً عن كتاب الدعوة في عهد الملك عبد العزيز (ص٢٧١).

(٥٨) مشاهير علماء نجد (ص١٨٨).

(٥٩) صقر الجزيرة (٧٩٩/٤) ،نقلاً عن كتاب الملك عبد العزيز إمام دولة ودعوة (ص٥٧-٥٨) وغيره.

(٦٠) شبه الجزيرة (ص٧٤٦).

(٦١) الملك والمملكة (ص٣٧).

(٦٢) سورة الزمر:١٨

(٦٣) المسجد الحرام تاريخه وأحكامه (ص١٧٣-١٧٥) .بمراجعه.

(٦٤) حالة الأمن في عهد الملك عبد العزيز (ص ٨٣).

(٦٥) انظر تفصيلاً أكثر من هذا في كتابي المسجد الحرام تاريخه وأحكامه.

(٦٦) من شيم الملك عبد العزيز (٢٥٣/٣).

(٦٧) سورة الأعراف:٩٦.

(٦٨) الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز (ص١٨١).

(٦٩) سورة النمل:٦٢.

(٧٠) الدعوة في عهد الملك عبد العزيز (ص٢٦٦).

(٧١) ينظر ترجمة المؤلف المطبوعة في آخر مقدمة تحفة الأحوذي النسخة الحجرية (ص٥).

(٧٢) وقد تشرفت بالجلوس في مجلس الشيخ عمر بن حسن مع شيخي العلامة محمد تقي الدين في سنة ١٣٩٠هـ في الطائف.

(٧٣) انظر بعض التفاصيل في كتاب شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز (٦٣٣/٢-٦٤٨).

(٧٤) ينظر: الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز (ص٣٣٨)، ومجلة الدارة العدد الرابع السنة الحادية عشرة ١٤٠٦هـ، نقلاً عن كتاب توحيد المملكة العربية السعودية وأثره في النهضة (ص٧٣-٨٥)، فقد ذكر ٩٨ كتابًا. وينظر أيضًا الدعوة في عهد الملك عبد العزيز (٥٠٢/١).

(٧٥) ينظر: موقع وزارة التعليم العالي للجامعات الحكومية والأهلية:

الحكومية: [http://www.mohe.gov.sa/ar/studyinside/Government-Universities/Pages/default.aspx]

والأهلية: [http://www.mohe.gov.sa/ar/studyinside/Private-higher-Education/Pages/listphe.aspx]

(٧٦) سورة الإسراء:٩.

(٧٧) سورة آل عمران:١٠٣.

(٧٨) سورة هود:٨٨.

المصادر والمراجع

١ الأحكام السلطانية، للماوردي علي بن محمد (٣٧٠-٤٥٠). دار الكتاب العربي، بيروت.

٢ الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، لشكيب أرسلان (١٢٨٢-١٣٦٦). مكتبة المعارف، الطائف، ١٣٩٧.

٣ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، للألباني محمد ناصر الدين (١٣٣٢-١٤٢٠). المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٩.

٤ الاعتصام، للشاطبي إبراهيم بن موسى (ت٧٩٠). دار الفكر.

٥ الإمامة من أبكار الأفكار في أصول الدين، للآمدي (٥٥٠-٦٣١). دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٢.

٦ البدر الطالع، للشوكاني محمد بن علي (١١٧٣-١٢٥٠). دار المعرفة، بيروت.

٧ مقدمة ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (٧٣٢-٨٠٨). دار الباز، ١٣٩٩.

٨ تاريخ الخلفاء، السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر (٨٤٩-٩١١). دار الفكر.

٩ تاريخ نجد، لحسين بن غنام (ت١٢٢٥). رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة الإرشاد، الرياض، ط٢، ١٤٠٢.

١٠ توحيد المملكة العربية السعودية وأثره في النهضة العلمية والاجتماعية، لعبد الله بن حمد الحقيل. مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٨.

١١ حالة الأمن في عهد الملك عبد العزيز، لرابح لطفي جمعة. دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٠٢.

١٢ الحديث والمحدثون، لمحمد محمد أبو زهو. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٤.

١٣ الحرمان الشريفان: التوسعة والخدمات خلال مائة عام. الرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام والمسجد النبوي، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩.

١٤ الدعوة في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله، لمحمد بن ناصر الشثري. دار الحبيب، الرياض، ط٤، ١٤٢١.

١٥ دعوة محمد بن عبد الوهاب بين مؤيّديها ومعارضيها في شبه القارة الهندية، لأبي المكرَّم بن عبد الجليل، دار السلام، الرياض، ط٢، ١٤٢١.

١٦ الدولة السعودية الأولى، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم. دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ط.٦، ١٤١٨.

١٧ سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني محمد ناصر الدين (١٣٣٢-١٤٢٠)، المكتب الإسلامي، ط.١، ١٣٧٨.

١٨ السنة، لابن أبي عاصم عمرو (٢٠٦-٢٨٧). المكتب الإسلامي، ١٤٠٠.

١٩ السنن، للترمذي محمد بن عيسى (٢٠٩-٢٧٩). اعتناء أبي عبيدة مشهور، مكبتة المعارف، الرياض.

٢٠ السنن، لأبي داود سليمان بن أشعث السجستاني (٢٠٢-٢٧٥). اعتناء أبي عبيدة مشهور، مكبتة المعارف، الرياض.

٢١ شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، للزركلي خير الدين. دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٥م.

٢٢ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي هبة الله بن الحسن (ت٤١٨). دار طيبة، الرياض.
٢٣ الجامع الصحيح مع فتح الباري، للبخاري محمد بن إسماعيل (١٩٤-٢٥٦)، المطبعة السلفية، مصر.
٢٤ الجامع الصحيح، لمسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٠٤-٢٦١)، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٤.
٢٥ طرح التثريب في شرح التقريب، للعراقي عبد الرحيم بن الحسين (٧٢٥-٨٠٦) وابنه أبي زرعة (٧٦٢-٨٢٦). دار المعارف، حلب.
٢٦ لسان العرب، لابن منظور (٦٣٠-٧١١). دار صادر، بيروت.
٢٧ مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، لابن باز، عبد العزيز بن عبد الله (١٣٣٠-١٤٢٠)، ط.٣، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، ١٤٢١هـ.
٢٨ مرآة الحرمين، لإبراهيم رفعت باشا (١٢٧٣-١٣٥٣).
٢٩ مرقاة المفاتيح، للقاري الملا علي بن سلطان محمد (ت١٠١٤). دار إحياء التراث.
٣٠ مرعاة المفاتيح، للرحماني عبيد الله بن محمد عبد السلام (١٣٢٧-١٤١٤). إدارة البحوث الإسلامية والدعوة والإفتاء بالجامعة السلفية، بنارس، الهند، ١٤١٩.
٣١ المسجد الحرام تاريخه وأحكامه، لوصي الله بن محمد عباس. طبعه الأمير متعب بن عبد العزيز آل سعود – حفظه الله-، ط٣، ١٤٢٨.
٣٢ المسند، للإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١). المكتب الإسلامي.
٣٣ المصحف والسيف، لمحي الدين القابسي. دار الناصر، الرياض، ط٣.
٣٤ معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (ت٣٩٥)، تحقيق عبد السلام هارون. دار الكتب العلمية، إيران، ط٢، ١٣٩٨.
٣٥ المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني الحسين بن محمد (ت٥٠٢). مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٨١.
٣٦ مفهوم السنة والجماعة، لناصر عبد الكريم العقل. دار العاصمة، الرياض، ط٢، ١٤١٩.
٣٧ الملك عبد العزيز آل سعود أمة في رجل، عبد الله بن عبد المحسن التركي. الرياض، ١٤١٩.
٣٨ الملك عبد العزيز إمام دولة ودعوة، لمحمد بن عبد القادر هنادي. دار البلاد، جدة، ١٤١٩.
٣٩ من شيم الملك عبد العزيز، لفهد المارك. وزارة الإعلام، المملكة العربية السعودية، ١٣٩٨.
٤٠ المهند على المفند، للزركلي خير الدين. دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٤.

فهرس الموضوعات

المقدمة	١
الفصل الأول: تعريف الجماعة والإمامة ومكانتهما باختصار	٤
الفصل الثاني: حالة الأمة الإسلامية قبل الملك عبد العزيز	٧
الفصل الثالث: عرض موجز لتاريخ دولة آل سعود	١٠
الفصل الرابع: واقع الأمن في شبه الجزيرة العربية قبل الملك عبد العزيز	١٤
الفصل الخامس: الحالة الدينية في شبه الجزيرة العربية قبل الملك عبد العزيز	٢٢
الفصل السادس: الحالة المعيشية في شبه الجزيرة العربية قبل الملك عبد العزيز	٢٨
الفصل السابع: واقع العلم والتعليم وأمور أخرى في شبه الجزيرة العربية قبل الملك عبد العزيز	٣٠
الخاتمة	٣٢
الهوامش	٣٣
المراجع والمصادر	٣٦
فهرس الموضوعات	٣٨